

أحمد محمد سليمان

دار العودة - بيروت

إهـــــــداء2005

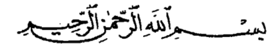
أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

بقلم
أحمد محمود سليمان

القرآن .. والطب .

دار العودة . بيروت



« ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم »

صدق الله العظيم

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

صدق الله العظيم

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ان هذا القرآن مادبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم . ان هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء الناجع : عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه،لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد . اتلوه فان الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما اني لا أقول : الم حرف ولكن الف ولام وميم» .

رواه الحاكم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال صديقى عاتبا : لقد فاتك الكثير من معجزات القرآن العلمية فى البابين اللذين عالجتهما فى كتابك الاول ٠

فقلت له : لعل له عذرا وأنت تلوم : ان الألسن ستظل توجه لكل باحث فى كتاب الله الأعظم مثل هذا النقد حتى يرث الله الارض ومن عليها فان له فى كل عصر جديدا يثير الاعجاب من جديد (انه لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد) ، أفتعجب اذن أن يلازمنى هذا القصور؟ ألست ترى معى أنه من المستحيل على وعلى غيرى أن يسبر غور هذا الجمال الذى لا حد له ولا قرار ، ويلم بتلك العظمة التى ليس لها ضريب أو مثال ؟٠

ما أنا الا كصائد در ولؤلؤ فى بحر لا يبلغ الطرف مداه يزخر بالجواهر والدرر ، كلما عثرت على درة عرضت بهاءها على الناس ان كانت أعينهم فى غطاء عنها ، وكم من أناس خاضوا هذا البحر قبلى ! وكم فيه الآن من غواصين غيرى ، وسيخوضه فى المستقبل من لا يحصرهم عد ، ولكن هل يدور بخلدك أن جواهره تنفد وأن لآلئه تنتهى ؟ لا ياصاحبى ، ان باطنه سيظل مملوءا بالجواهر والفرائد ، وسيخرج لهم فى كل وقت ما يثير اعجابهم ويزيد دهشتهم ٠ وما نحن فى الحقيقة يا صديقى الا اطفال على شاطىء بحر يتلهون بما يقذف لهم الموج من أصداف !

وقد كان يكفى قدماء المسلمين أن يلم احدهم باحدى سوره ويتفهمها ويسير على نهجها فتكون له نبراسا يضىء نفسه وينير طريقه ويهديه سبيل من أناب ٠

كان القرآن مرهما لجراحهم وشفاء لامراضهم ونورا وهدى لهم : يملأ نفوسهم بالطمأنينة فى المدلهمات وبالصبر على المصائب والنائبات٠

جعل بينهم وبين الرذيلة سدا ، وغرس في نفوسهم الفضلية فأصبحت منهم جزءا لا يتجزأ . كان لهم بحرا يغترف منه الظامىء فينقع غلته ، ويصيد منه الجائع فيسد جوعته ويجد فيه المتطهرون ماء نقيا يزيلون به ما علق بهم من أدران ، ويستخرج منه طلاب الزينة اللؤلؤ والمرجان.

كان كتاب أخلاقهم وصحيفة دنياهم وآخرتهم ، ولذلك سادوابغير مشقة ، وانتصروا بقليل من العدد والقوة ، وانتقلوا من الذلة الى العزة، وكانوا خير أمة تأمر بالمعـــروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . كونوا امبراطورية سادها الحب والاخاء ، وعمها العدل والرخاء ، امبراطوريةلم يتحل خلفاؤها بتيجان من لؤلؤ أو جوهر ولا بحلل مزخرفة ، بل كانت خشية الله رداءهم وطاعة الله شعارهم . كان الواحـــد منهم يرقع ثوبه ويخصف نعله ويجوع ليشبع غيره . يقترض ان احتاج وخزائن دولتـه تسد حاجة كل محتاج ! كانت تفيض بما فيها من أموال يغترف منهـــا الفقراء والمســـاكين وأبناء السبيل ومن أصابتهم النوائب والمجاهدون في سبيل الله ، امبراطورية لا خادم فيها ولا مخدوم ولا سيد فيها ولا مسود ، الجميع فيها سواسية كأسنان المشط ، لم يكن مقياس الفضل فيها جاه ولا مال ، ولكن بذل النفس والمال وحسن الخلال ، امبراطورية كان المخدوم فيهـا لا يستنكف أن يخدم خادمه ولا السيد أن يقضى حاجة المسود .

ان هذا القرآن أخرجهم من الظلمات الى النور . ولو لم يكن له معجزة غير التغيير الشامل الذى أحدثه في كل ناحية من نواحى هذه الأمة في سنوات قليلة لكفى ، اذ استبدل بجهلهم المطبق علما ونورا ، وبرذائلهم الشائعة خلقا عظيما ، وبتفككهم وحدة ، وبذلتهم عزة ، وبكفرهم ايمانا. أوجد منهم مجتمعا مثاليا لم تشهد الانسانية له نظيرا ، ســـاده الاخاء الصافي والمحبة التى لا تعرف الرياء ، والعدل الذى لا يعرف المحاباة ، والرحمـــة التى لا تعـــرف المن ، والايثـار الذى لا يعرف الاثرة ، تواضع في غير ضعف ، وشدة في غير عنف الا اذا احتدم الوغى أو نودى للجهاد، فشدة دونها كل شدة ، وقوة ليس وراءها قوة .

(أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) . (١)

كانوا اذ نادى المنادى « حى على الجهـد » يتسابقون ويتزاحمون ،

---

(١) سورة الفتح من آية (٢٩) .

وان تخلف أحدهم لمرض أو عجز فاضت عيناه من الدمع حزنا ألا يكون من المجاهدين ، كان الموت أحلى عندهم من الحياة . كان ضعفهم حينئذ ينقلب قوة جارفة وشكيمة ماحقة ، ترهب أعداءهم وتزلزل أقدامهم مهما كثر عددهم .

(ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا . سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) . (١)

كانوا اذا تعاونوا – تعاونوا على البر والتقوى ولم يتعاونوا على اثم وعدوان .

ظلوا هكذا طالما كان القرآن امامهم ، فلما هجروه تغيرت نفوسهم فتغير الزمان معهم وسادهم غيرهم ، وأصبحوا في بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض . أصبحوا يتخبطون في تيه مظلم ، اذ جعلوه وراءهم ظهريا ، ففقدوا النجم الذي كانوا به يهتدون :

(وقال الرسول : يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) (٢)

ولكنه كان في ليلهم صاحب الفضل الاكبر عليهم ، اذ حفظ لغتهم من الضياع ، وأقنط منهم الأعداء ، وأوجد في نفوسهم قبسا كامنا من الضياء ، استعصى على عوامل الظلم والافناء ، وقد أيقن أعداؤهم – مستعمروهم وظالموهم – أن لا سبيل للقضاء عليهم الا بالقضاء عليه ، ولكنه كان أكثر منهم قوة وأشد منهم مراسا ، اذ هو السيف البتار مهما ضعف حاملوه ، والدرع الواقية مهما تخاذل لابسوها ، والبلسم الشافي مهما تكاثرت العلل ، والنجم الثاقب مهما أظلم الليل وطال ، هو رمز الحرية الكاملة والعزة الشاملة ، هو المعين الذي لا يغيض والحقل الذي جمع من الازهار والرياحين ما لم يتهيأ لحقل غيره ، هو روضة فيحاء غناء ، من أية ناحية ولجتها ، وفي أي وقت دخلتها – رأيت جمالا يحار الناظر اليه ، يستولي بجلاله على مشاعره ويأخذ بالالباب .

هاجمه الكثيرون فارتدوا عنه خائبين ، وحاول أعداؤه أن يجدوا في حصنه ثغرة فأعيتهم الحيل ، وأيقنوا أنه منيع لا ينال ، تعددت أسلحتهم وتنوعت أساليبهم ، فلم ينالوا منه خدشا ، بل كانت نصالهم ترد الى

---

(١) سورة الفتح آيتا (٢٢ ، ٢٣) .

(٢) سورة الفرقان آية (٣٠) .

نحورهم وتبددت جيوش ظلامهم أمام نوره الساطع وضوئه الوهاج • قصةقديمة يزاح عنها الستار بين الحين والحين ، ولكن النتيجة واحدة مهما افتن المضللون ، اذ هو قد تحدى الانس والجن الاولين منهم والآخرين وسيظل شعلة الايام التى لا تطفأ ، وكتاب الدهر الذى لا يبلى ، ومعين العلم الذى لا يغيض •

هو حكمة الدهر ، وقانون البشر الاعظم ، وسيظل العالم سادرا فى غيه ، والشرق يتقدمه غيره ، ما دام لم يتخذه دستوره ، ولا يستمد منه قوانينه ، ولو فعل ذلك لاستبدل بحيرته طمأنينة ، وبظلامه الحالك نورا، وبذلته عزة •

ولقد اتهم بعض الغربيين القرآن بأنه سبب الجمود العلمى للعرب فى أيامهم الاخيرة ، وهى تهمة باطلة ، ألصقها الاوربيون قياسا على جمودهم العلمى فى القرون الوسطى نتيجة لمحاربة رجال الدين للعلم ورجاله ، والعداء المستحكم بينهما وقتئذ ، ولكن الاسلام سلك طريقا مناقضا لهذا تمام المناقضة ، فالاسلام هو العلم ، انه معرفة الله حق معرفته ، ولن يصل الانسان الى هذه المعرفة الحق الا بالالمام بآيات الله فى خلقه ، حينئذ يكون ايمانه قائما على أساس لا يتزعزع • وكلما ازداد علمه ، بهرته العظمة ، واستولت على مشاعره ففنى فيها • وها هو ذا رسول الله صلوات الله عليه أشد الناس ايمانا بالله لأنه أكثرهم به معرفة وعلما ، فقد كان يقول : « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ، ولضحكتم قليلا» ، وقال صلوات الله عليه : « ان أتقاكم لله وأعلمكم بالله أنا » وهاهو ذا تبارك وتعالى يخص العلماء بشرف خشيته اذ يقول فى محكم آياته .

(انما يخشى الله من عباده العلماء) •

وقوله جل وعلا : (وقل رب زدنى علما) دليل على أن العلم هو المفتاح الأكبر للايمان •

وليس هناك دليل أقوى ؛ ولا أوضح على تشجيع الاسلام للعلم ورجاله من قول رسول الله صلوات الله عليه فى حديث رواه أبو هريرة .

« من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله به طريقا الى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده » •

فقد جعل الله طريق العلم طريقا مؤديا الى جنته ، واختص الذين يبحثون كتـاب الله ويتدارسون آياته بفضل عزيز المنـال ، لا يمكن أن ينال بعقار مهما كثر أو مال ، وانك لو تدبرت قوله تبارك وتعالى :

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) لوضحت لك منزلة العلماء عند الله ولعلمت تبجيل الاسلام لهم .

ولقد ذكرت فى مقدمة الجزء الاول أن فكرة العداء بين الدين والعلم انما هى فكرة أوربية غريبة عن الاسلام وأهله . والتاريخ الاســــلامى زاخر بالأدلة على احترام الخلفاء والأمراء والحكام فى جميع العصور والأزمان للعلم والعلماء ، فقد كان الولاة يقدمون العلماء على أنفسهم ويولونهم من التجلة والاحترام ما هم أهل له ، ولم نسمع فى التاريخ الاسلامى قط عن هذه العداوة التى نشأت وترعرعت ، واستمرت الى الآن فى البلاد الغربية دون أن تخف حدتها، حتى تجلت فى أظهر صورها فى القرن التاسع عشر فى الثورة الفرنسية ، اذ كان اتجاه الثوار الى القضاء على النبلاء ورجال الدين ، كما عمت هذه الثورة موجة من الالحاد ، ولم يقض على هذه العداوة تقدم البشرية ولا سير المدنية بخطى حثيثة فى القرن العشرين ، فقد ظهرت بأبشع صورها فى الثورة الشيوعية التى كان من أول مبادئها ــ « التحلل من الطغيان الدينى » بمحاربة الأديان بجميع صورها واعتبارها أن الدين انما هو أفيون الفقراء ومن أول مبادئها نشر الالحاد وانكار وجود الله !

أما العلم فى الشرق ، وبخاصة فى الأمم الاســـلامية ، فقد وجد فى الدين حليفا له ، بل أخا ، وسيظل هذا الاخاء بين الدين الاسلامى والعلم سائدا كلما تقدمت الأيام ، لأنه اخاء طبيعى . واذا كان بين الدين والعلم فكرة عداء خلقتها أوربا ، واذا كانت هده الفكرة قد ألقت بعض الظلال على منظر هذا الاخاء البديع ــ فانه لابد لكل أثر من هذا أن يزول ، اذ أن مهمة الاسلام الكبرى هى أن يخرج الناس من الظلمات الى النور : من ظلمات الالحاد الى نور الايمـان ، ومن ظلمـات الرذيلة الى نور الفضيلة ، ومن ظلمات الجهل الى نور العلم (انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق) (١) .

ولعـل أبلغ صورة لتبجيل القرآن للعلمـاء ، وعلو درجتهم ، قوله تبارك وتعالى فى سورة آل عمران : (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، لا اله الا هو العزيز الحكيم) .

---

(١) حديث شريف

وقوله تبارك وتعالى فى سورة البقرة : (يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، وما يذكر الا أولو الألباب) . وقوله تبارك وتعالى فى سورة العنكبوت : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) .

فهل بعد هذا يقال : ان القرآن لا يشجع العلم والعلماء ؟ وليس فى استطاعة أحد أن يفسر أولى العلم و (يؤت الحكمة) و(العالمون) بالعلماء الدينيين أو العلم الدينى فقط ، اذ لا شيء فى هذه الآيات يحصر معناها فى هذا النطاق . فالمراد بالعلم كل علم نافع . والعلوم اما أن تكون فرض عين ، أو فرض كفاية . والعلم فى الاسلام ينطبق على جميع النواحى التى ترقى الانسان أخلاقيا واجتماعيا ونفسيا وجسميا ، بدليل أن القرآن كتاب الاسلام الأول تناول هذه النواحى جميعها ، كما تناولتها أيضا أحاديث رسول الله صلوات الله عليه ، وهى كتاب الاسلام الثانى .

ولقد ظلموا القرآن ، ولكن القرآن دائما يدحض باطل المبطلين. فيه من العلوم أضعاف ما بجميع ما سبقه من الكتب المقدسة : فالعهد القديم أكثر الكتب السماوية تناولا للناحية العلمية قبل القرآن لم يتعرض الا لثلاثة موضوعات فحسب : خلق الأرض ، وخلق ما عليها من كائنات فى الاصحاح الاول من سفر التكوين ، وسيرة الانبياء من آدم عليه السلام الى انبياء بنى اسرائيل .

والقرآن كما أسلفنا حينما تناول الأرض وتكوينها وما خلق عليها تناولها تناولا أعم بكثير وأدق ، تناولا ينطبق انطباقا تاما على أحدث الحقائق العلمية ، وحينما سرد قصص الانبياء سردها بطريقة أوضح وأشمل ، كما أنه رسم للناس الطريق الصحيح للبحث العلمى ، ودعاهم الى استقصاء الحقائق بأنفسهم فى كثير من آياته : انظر اليه فى احدى سوره يقول : (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الارض كيف سطحت) (١) فكيف يتهم مثل هذا الكتاب ؟ انها لتهم باطلة يمليها الهوى والضلال : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا) .

وعلى الرغم من أن القرآن زاخر بالعلوم الفلكية والتاريخية والطبية والقانونية والاجتماعية فله ميزة أخرى غيرهذه المزايا الكثيرة على ماسبقه من كتب: تلكهى امكان استذكارهعن ظهر قلب، فمن المسلمين ممنيحفظه

---

(١) سورة الغاشية .

اليوم الآن حتى في البلاد التى لا تتكلم العربية مثل الباكستان وتركيا ، على حين لا يمكننا أن نجد من يحفظ التوراة أو الانجيل عن ظهر قلب . وهذا مصداق لقوله تبارك وتعالى فى سورة القمر فى أكثر من موضع : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) . (١)

ولقد تناولت فى بحثى الأول الناحيتين الفلكية والتاريخية وسيتناول هذا البحث العلوم الطبيعية ، لعل القارىء يرى أن القرآن الكريم قد ألم بآيات كشفت عن القليل منها الأيام ولكن أكثرها لا يزال مستعصيا على الأفهام .

وانى لأزجى أعمق الشكر وأخلصه لصاحب اليد الطولى فى اخراج هذا الكتاب الدكتور عبد القادر حاتم الذى يكرس كل وقته وجهده لخدمة الثقافة والعلم فى وطنه الأصغر ووطنه الاكبر فى ظل رائد العروبة الرئيس جمال عبد الناصر .

كما لا يفوتنى أن أشكر كل من أسهم فى هذا السفر خاصا بالذكر صاحب الفضيلة الشيخ محمد الحافظ التيجانى شيخ السادة التيجانيين بمصر ، والدكتور « لطفى بيومى » عميد كلية الطب بطنطا ، والاستاذ « محمد على ابراهيم » المفتش العام للغة العربية ، والله ولى التوفيق .

---

(١) سورة القمر .

تفجير الذرة

في اليوم العاشر من أغسطس سنة ١٩٤٥ انبثق فجر جديد في تاريخ البشرية ، وقد أبت البشرية أن يبزغ هذا الفجر دون أن تقدم له قربانا من دماء أبنائها فقدمت له أثمن قربان قدمته في حياتها الطويلة ، وما كان ذلك القربان الا تدمير مدينتين كبيرتين آهلتين بالسكان من مدن اليابان ، ذهب معظم سكانهما ضحايا على مذبح فجر هذا العصر الجديد . وكم ستقدم البشرية من ضحايا جدد تزداد أضعافا ان ظلت سادرة في غيها غير ثائبة الى رشدها !

ولم يكن هذا الحادث الذي وضع حدا لتلك الحرب الضروس ــ الحرب العالمية الثانية ــ التي كانت مستعرة وقتئذ غير القاء قنبلة ذرية على هيروشيما (١) كانت قوتها تزيد على عشرين ألف طن من أشد أنواع الديناميت فتكا ، تكلفت رقما خياليا ، اذ يبلغ أكثر من ستمائة مليون من الجنيهات (٢) . أتبعها ذلك المخلوق ــ الذي يتشدق بالشفقة والرحمة والحنان ــ أخرى على مدينة نجازاكي بعد ثلاثة أيام من القاء القنبلة على هيروشيما .

كم دمرت الأولى من هيروشيما ؟

دمرت ما يزيد على أربعة أميال تدميرا تاما .

وكم قتلت ؟

قتلت ٧٨١٥٠ نفسا غير المفقودين وعددهم ١٣٩٨٣ وغير المصابين وعددهم ٦٠٫٠٠٠ .

---

(١) القيت قنبلة هيروشيما في الساعة الثانية والربع من صباح يوم ١٠ من أغسطس سنة ١٩٤٥ .

(٢) انفقت حكومة الولايات المتحدة في انتاج القنبلة الذرية أكثر من ألفي مليون من الدولارات وقامت بتجربتها لاول مرة في ١٦ من يوليو سنة ١٩٤٥ .

اما القنبلة « الثانية » فكانت ضحاياها فى مدينة نجازاكى ٤٠٫٠٠٠ قتيل و ٢٥٫٠٠٠ جريح وأوقف بها دولاب العمل تماما ٠

وليت الامر وقف بهاتين الضحيتين عند هذا المصاب الفادح فقط . بل استمرت الاصابات تترى على أهلها أسابيع كثيرة بعد ذلك بفعل الاشعة المنبعثة من أثر تلك القنابل التى أضافت الى قائمة الضحايا ضحايا أخر وامتد أثرها حتى الى الأجنة فى بطون أمهاتهم !

وما هى الا أيام قليلة حتى أعلن الميكادو امبراطور اليابان استسلام بلاده دون قيد أو شرط . فذهل العالم اذ كان يحسب أن ما نشره الحلفاء عن مدى تأثير هذه القنابل انما هو مجرد دعاية مبالغ فيها . وناهيك بقنبلتين تخضعان أمة تعدادها مائة مليون من الانفس، وتحكم امبراطورية عظيمة !

ومن ذلك الوقت أخذت أذهان الناس تتفتح وازداد حب استطلاعهم عن هذه القنبلة العجيبة التى ظل العلماء فى كثير من الممالك يبحثون عنها وينقبون . وظلت الحكومات تنفق عن سعة وتبذل الأموال الوافرة فى سبيل الحصول عليها . واخذ الجميع يكد ليحوز قصب السبق فى اقتنائها ليضمن الغلبة والنصر ٠

ولم يكد الناس يعلمون أن هذا الأمل قد تحقق حتى أيقنوا أن عصرا جديدا قد بدأ . وأن هذا الشىء التافه الضئيل الذى يسمى بالذرة ولايرى بالعين المجردة قد أصبح يتوقف عليه شقاء العالم وسعادته . وأن القوة الكامنة فيه قوة مخيفة ان استعملت فى الحرب لا تبقى ولا تذر . وان استعملت فى الخير نشرت الرخاء بين البشر ٠

تلك هى الذرة التى عرفها قدماء العلماء بأنها الجزء الذى لا يتجزأ وبأنها أصغر شىء فى الوجود ٠

لكن كتابا واحدا ـ القرآن الكريم ـ قال : ان هناك ما هو أصغر من الذرة ٠ عجبا ! ولكن متى كان ذلك ؟

كان ذلك فى أوائل القرن السابع حينما كان العالم يغط فى جهله . فسبق العلم بثلاثة عشر قرنا تقريبا : اذ لم يتوصل العلماء الى تلك الحقيقة الا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ٠ سبق العلم بقوله : ان هناك أجساما أصغر من الذرة فى قوله تبارك وتعالى فى سورة سبأ :

(لا يعزب(١) عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين) ٠

وقد تحقق هذا القول حينما كشف العلماء فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن ذرات بعض المواد كالراديوم واليورانيوم تتجزأ من تلقاء ذاتها وتخرج منها جسيمات ذات كهربا موجبة تسمى ألفا، وجسيمات ذات كهربا سالبة تسمى بيتا ، وأشعة تسمى جاما ٠

ومازال العلم يواصل بحثه حتى توصل الى تحطيم الذرة تحطيما صناعيا ، الى أن جاء يناير سنة ١٩٣٩ أى قبل الحرب العالمية الثانية ببضعة شهور فحدث أهم حادث مهد للقنبلة الذرية ، وذلك هو توصل العالم الألمانى ها هن واشتراسمان فى معهد برلين الى فلق ذرة اليورانيوم الى قسمين كبيرين وأقسام أصغر منها ٠

وأول من فطن الى أن المادة تتكون من ذرات عالمان اغريقيان عاشا قبل الميلاد فى القرنين الخامس والرابع (٢) ٠

وتتلخص نظريتهما فى أن المادة مكونة من ذرات غير قابلة للانقسام، منفصلة بعضها عن بعض ، وأن ذرات المواد المختلفة تختلف فى الشكل والحجم والوزن وهى فى حركة مستمرة ، وأن المواد تختلف فى الخواص باختلاف طبيعة ذراتها ٠

ولكن هذه النظرية أسدل عليها ستار النسيان حينما جاء أرسطو أبو العلماء وقال : ان جميع المواد تتكون من الماء والهواء والتربة والنار ٠ ونظرا لشهرة أرسطو العلمية اعتنقها العلماء وظلت سائدة فى أوربا مدى عشرين قرنا حتى برهن العلماء على خطئها ، اذ توصل العالم البريطانى (جون دالتون) فى سنة ١٨٠٤ الى أن نظرية لوسيباس وديموكريتس انما هى النظرية الصحيحة ، ثم أدخل عليها تعديلات توصل اليها بتجاربه ٠

والنظرية بوصفها هذا كانت تتعارض مع ما جاء به القرآن الكريم من وجود أجسام أصغر من الذرة ، ومن ثم من امكان تقسيمها ٠ ولكن الحق لابد أن ينبلج واضحا جليا مهما طال اختفاؤه ، فقد ظلت هذه النظرية

---

(١) لايخفى ٠

(٢) ديمو كريتس الذى عاش بين سنتى ٤٦٠ – ٣٥٧ ق٠م ولوسيباس الذى عاش فى النصف الاخير من القرن الخامس قبل الميلاد ٠

سائدة حتى حطمها العلم الحديث الذى رجع الى ما جاء به القرآن الكريم من الحق · اذ أثبت أن الذرة تنقسم من تلقاء نفسها الى أصغر منها ، وأنه من الممكن تحطيمها صناعيا وتقسيمها ، فتبارك العزيز الحكيم : (وفوق كل ذى علم عليم) ·

ولكى يعلم القارىء مقدار الاعجاز فى قول القرآن العظيم وابرازه تلك الحقيقة التى أنشأت عصرا جديدا فى حياة البشر ـ لكى يدرك هذا فما عليه الا أن يعرف أن الذرة التى ظل العلماء حتى نهاية القرن التاسع عشر يؤمنون باستحالة انقسامها ، كما لم يتمكنوا من تحطيمها صناعيا الا عام ١٩١٩ حينما نجح رذرفورد (١) · فى تحطيم أول ذرة بتسليط دقائق الألفا على ذرات الآزوت والحصول على ذرات ايدروجين ـ انما هى ـ كما قال قبلا أحد فلاسفة الصوفيين (٢) ـ عالم شمسى يبلغ من الصغر حدا كبيرا . بحيث لو أمكننا أن نضع عشرة ملايين من الذرات الواحدة لصق الاخرى ، لبلغ طول هذه الملايين العشرة ملليمتر واحدا ·

والذرة تتركب من نواة هى شمسها حولها جسيمات تدور من الغرب للشرق كما تدور الكواكب حول الشمس : فذرة اليورانيوم مثلا تتكون من نواة يدور حولها ٩٢ جسيما ونواة الذرة تبلغ من الصغر حدا بيث لو وضعنا مائة ألف نواة الواحدة منها بجوار الاخرى لبلغ طولها ذرة واحدة ، وهذا يعنى أن الملليمتر الطولى يسع مليون نواة ·

فاذا جاء القرآن الكريم وذكر هذه الحقيقة فى القرن السابع على لسان أمي فى أمة أمية تعيش فى بادية لاصلة لها بهذا النحو من المعارف· أفلا يكون هذا اعجازا ؟ بلى ، انه الاعجاز عينه ·

وهذه النظرية التى تضمنها القرآن الكريم قبلأن تهتدى اليهاقرائح العلماء بقرون عدة مر الناس عليها مر الكرام ، غير عالمين أنها تحتوى حقيقة رهيبة قد تبنى عليها حضارة عصر بأكمله ، وقد تحدث انقلابا واسعا فى وسائله الصناعية والزراعية انقلابا لم يشهد التاريخ له مثيلا ، وكانت هذه الحقيقة التى احتواها القرآن الكريم أعظم كشف اهتدى اليه الانسان ، أنتج عجبا وسوف ينتج حقائق أغرب من الخيال ·

ولكى يتصور القارىء مقدار ما سوف ينال العالم من تغيير حين تفك

---

(١) عالم انجليزى اشتهر بأبحاثه عن الذرة وبتجاربه الكثيرة الناجحة على اشعة الراديوم .

(٢) السهروردى الذى قال : ان فى كل ذرة شمسا .

تلك القوة من عقالهـا ، تلك القوة التى تنشأ من انقسام الذرة ، عليه أن يعلم أننا لو استطعنا أن نحول جراما واحدا من المـاء الى طاقة بوسـاطة انفلاق ذراته لحصلنا منه على طاقة تعادل ٣٣ مليون حصان، ومن ثم نحصل من لتر واحد من الماء على هذا المقدار مضروبا فى ألف، أى على طاقة تكفى كل احتياجاتنا الصناعية والزراعية فى مصر لمدة طويلة ، كما أنه يمكن ببضعة جرامات من مادة تقبل نواتها الانفـلاق أن نسير باخرة كبيرة عدة رحلات بين مصر وأوربا بدلا من آلاف الاطنان من الفحم والبترول !

واذا توصل الانسان الى هـذا فسوف تنقلب المقاييس رأسـا على عقب ، سوف يستطيع الانسان كما يقول العلماء أن يسافر بسرعة خيالية: يستطيع مثلا أن يقطع المسافة بين القاهرة والاسكندرية فى دقيقة واحدة، وبين القاهرة وأسوان فى خمس دقائق، وبين نيويورك على المحيط الاطلسى وسان فرانسيسكو على المحيط الهادى فى نصف ساعة ٠ ولن يكون هناك قيمة لفضة أو ذهب ، فباستخدام الطاقة الذرية سيمكن تحويل أى معدن رخيص الى ذهب ٠

هذا اذا استخدم هذا الكشف فى السلم ، أما اذا استخدم فى الحرب حين تتغلب نوازع الشر فويل للانسان والمدنية منه ، وويل لهم مما كسبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ٠

وأرسلنا الرياح لواقح

جلست ذات يوم مع صديق حميم فى سرادق فخم ، به مقرىء يرتل القرآن ترتيلا ، يرتله بصوت رخيم أضاف الى خشوعنا اعجابا وتعظيما. أخذ يتلو سورة الحجر ، حتى اذا أتى الى احدى آياتها ، هم صديقى أن يحدثنى فى أمر أثار حب استطلاعه ، فأومات اليه بالسكوت مرددا قول تبارك وتعالى: (واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)

فرغ المقرىء من تلاوته فنهضنا واتجهنا الى مكان على شاطىء النيل ، وما ان جلسنا نستنشق أولى عبرات النسيم العليل ، حتى التفت الى صديقى قائلا : هات ما عندك فليس هناك أكثر من هذا المكان هدوءا لتدبر آيات الذكر الحكيم . قال : كنت أريد أن أنبهك الى قوله تبارك وتعالى . (وأرسلنا الرياح لواقح ، فانزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) .

قلت له : لكى نرسم الصورة كاملة لا بد أن نضيف الى هذه الآية قوله تبارك وتعالى فى سورة الرعد .

(ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

اعتدل الصديق فى جلسته وجمع أشتات أفكاره وسالنى: ولم تريد أن نجمع بينهما ؟

أريد أن أجمع بينهما لأنهما تجمعان معجزتين مرتبطة بعضهما ببعض .

ـ وما هما ؟

ـ هل تسالنى تجاهل عارف أو جاهل لم تأته الاخبار ؟ ألا تدرى أن هاتين الآيتين هما جماع ما وصل اليه العلم الحديث فى تلقيح النبات .

قال صديقى :

— أريد لما قلت تفصيلا .

قلت :

— ألا تخشى أن يمتد الوقت بك فتتأخر عن موعد أوبتك الى منزلك، فتثير اشكالا أنت فى غنى عنه ؟

تبسم صديقى وقال :

— دع عنك هذه المداعبات ، فأنا الى تعرف الحقيقة فى أشد الاشتياق: ﴿ ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾ (١) ان الحديث فى هذا عبادة وتسبيح سنؤجر عليه ان كنا مخلصين .

— الحق ما قلت ، اذن فالى فانصت .

ان وجه الاعجاز فى هذه الآيات ينحصر فى أمرين :

الأول : الحقائق التى تضمنتها هذه الآيات .

الثانى : السبق العلمى للقرآن الكريم .

---

(١) آل عمران آيتا (١٩٠ و ١٩١) .

الوجه الاول :

(أ) الزوجية فى النبات :

ان مضمون هاتين الآيتين يتلخص فى حقيقتين :

أولاهما : ان الله جل وعلا أوجد ذكرا وأنثى لكل نبات مثمر بقوله تبارك وتعالى : (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) ، وهذا مطابق تمام المطابقة لما سلم به العلم الحديث من أن أزهار النباتات تنقسم من حيث الجنس ثلاثة أقسام :

١ ـ أزهار مذكرة .
٢ ـ أزهار مؤنثة .
٣ ـ أزهار خنثى تجمع الى عنصر التذكير عنصر التأنيث .

قال صديقى :

ـ أنت تعرف أننى تخصصت فى الدراسات الادبية ، لعدم ميلى الى العلوم والرياضات ، لذلك فحديثك هذا يحتاج الى شرح وايضاح .

قلت له :

ـ ألا تعرف التخيل ؟

قال :

ـ بلى .

قلت :

النخيل نوعان : نوع مذكر ونوع مؤنث ، أى نخيل يحمل أزهارا مذكرة ، ونخيل يحمل أزهارا مؤنثة .

ـ وما بالك بالذرة ؟

قلت :

ـ ان نبات الذرة ليس به نبات مذكر ، ونبات مؤنث . ان النبات الواحد يحمل أزهارا مذكرة وأزهارا مؤنثة .

ـ ثم قلت :

لعلك قد رأيت الفول ·

قال :

ـ ومن منا لم يره ؟

قلت :

انه يختلف عن النوعين السابقين ·

ـ فيم ؟

ـ فى أن زهرة الفول تجمع بين عضوى التأنيث والتذكير ·

ـ شيء عجب !

ـ أتعجب من أمر الله ؟

ـ نعم ·

ـ ان تعجب ، فلا تعجب الا من أننا لم نتدبر آيات هذا القرآن العظيم ، الذى كان أول من نبه الى الزوجية فى النبات ، وأول من أزاح الستار لنا عن تلقيح الرياح للثمرات ·

(ب) الهواء أهم عوامل التلقيح

والحقيقة الثانية : تتلخص فى أن الله تبارك وتعالى جعل من الرياح وسيلة من وسائل التلقيح ·

والتلقيح فى النبات عبارة عن نقل حبوب اللقاح من عضو التذكير الى عضو التأنيث فى النبات نفسه ويسمى تلقيحا ذاتيا ، أو فى نبات آخر من النوع نفسه ويسمى تلقيحا خليطا · ومن أمثلة النباتات الذاتية التلقيح العنب والصفصاف والكافور ·

وعوامل التلقيح قسمان : رئيسى، وغير رئيسى· والعوامل الرئيسية هى التيارات الهوائية والحشرات ، أما العوامل غير الرئيسية فهى الماء والطيور والحيوانات والانسان ·

ومن النباتات الهوائية التلقيح : القمح والشعير والذرة والحشائش ، وهى النباتات التى تكون الغذاء الرئيسى للانسان ومعظم الحيوان ·

ويلقح الهواء أيضا البردى والسمار والحور والحماض ونبات رجل الأوزة، والبندق وأشجار الناسول والصنوبر والشربين والاشجار المخروطة والبنجر والطلح ذلك النبات الذى أطلقه العرب على واد فى الاندلس ورد ذكره فى شعر شوقى حين يقول فى منفاه :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا	نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا	قصت جناحك جالت فى حواشينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا	سهما وسل علينا البين سكينا

قال صديقى :

ـ ما أحلى الادب والعلم اذا امتزجا ، هيا أتمم بقية قصتك .

ـ انها ليست قصة ، بل هى حقائق سبقنا بها العلم قرونا . قد ألممت ببعض النباتات الهوائية التلقيح ، أما النباتات الحشرية التلقيح فمنها السلفيا والبسلة والفول وحنك السبع والقطن .

والحشرات هى أهم وسائل تلقيح الزهور فى الأقاليم التى فى المنطقة المعتدلة الشمالية ، أما فى المنطقة الحارة ونصف الكرة الجنوبى ، فاهمية الطيور كعامل من عوامل تلقيح الزهور تعادل اهمية الحشرات أو تزيد عليها . وأهم الحشرات التى تنقل اللقاح النحل والذباب والخنافس والفراش والعتة والنمل والزنابير .

وأهم النباتات المائية التلقيح الانوديا ونخشوش الحوت ، وليست كل النباتات المائية مائية التلقيح ، بل ان بعضها هوائية التلقيح .

أما النباتات التى تلقح بوساطة الحيوانات فهى كثيرة ، ويقال : ان كثيرا من النباتات الحارة تلقح بوساطة الوطاويط : وهى تلك النباتات التى تتفتح أوراقها فى المساء ، تبحث عنها الوطاويط وتأكل أوراقها ، وعند انتقالها من زهرة الى زهرة تنقل معها حبوب اللقاح مثل اللوتس .

ومن ذلك نرى أن الهواء هو أهم عوامل التلقيح ، اذ قد كشف العلم أنه يلقح أهم النباتات البرية ، كما يلقح كثيرا من النباتات المائية وهذا هو السر الذى من أجله خصه القرآن الكريم بالذكر دون غيره من العوامل .

الوجه الثانى :

السبق العلمى للقرآن :

أما الوجه الثانى للاعجاز يا صديقى فهو ذكر القرآن الكريم لهذه الحقائق قبل أن يكشفها العلم بقرون عدة ، فقد كان القدماء لا يدرون عن التلقيح شيئا اللهم الا عملية واحدة من عمليات التلقيح الصناعى ألا وهى عملية نقل الزهور المذكرة من نخل مذكر الى الزهور المؤنثة فى نخل مؤنث وتسمى عملية تذكير النخل . ويمكننا أن نرى صور ذلك واضحة فى نقوش قدماء المصريين . وبعد ذلك توصل الانسان الى معرفة ضرورة ختن التين .

ولكن متى تسنى للبشرية الالمام بعوامل التلقيح وأنواع الأزهار ؟

لم يتسن للبشرية ذلك الا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، اذ أخذ العلماء يدرسون التلقيح . وقد تتابعت دراساتهم وامتدت ، حتى توصلوا الى ما سمعته فى كتاب الله العزيز ، الذى نزل فى وسط بقعة جرداء ، لا نبات فيها ولا ماء منذ اثنى عشر قرنا قبل أن يبدأ فى البحث هؤلاء العلماء .

قال صاحبى : حقا ان فى هاتين الآيتين لاعجازا وأى اعجاز .

قلت : لقد آن الأوان أن نفترق كل الى وجهته ، فقد أسدل الليل أستاره ، وكادت نجومه تغور ، ولو أردت المزيد من آيات الله فهناك الكثير الذى لا يحصيه عد ولا يسعه حصر .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد
اذا ما تدبرت آياته فأنت هو العابد الساجد
واما تشاهد نعماءه فأنت هو الواله الواجد

زوجية المادة

هم صاحبي بالقيام ، واراد ان يغادر المكان ، ولكنه جلس ثانيا .

ـ تذكرت شيئا أريد أن أسألك عنه .

ـ ما هو ؟

ـ قوله تبارك وتعالى في سورة الذاريات : (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) (١) .

أفادك الله ، لقد ذكرتني وجها آخر من اوجه اعجاز القرآن ، فكل شيء يشمل النبات والحيوان والجماد ، أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ استمع الي يا فتى ـ لقد سبق أن علمت أن بأزهار النباتات ذكرا وأنثى ، وهذه الحقيقة نعلم أنهـا تتمثل في الحيوان بصورة واضحة ، أما الجماد فأين الزوجية فيه يا ترى ؟

ـ هذا ما أقعدني .

ـ ألا تعلم أن الجماد مكون من ذرات ، وأن هذه الذرات تتمثل فيها الزوجية ؟ انهـا حقيقة لم يتبينهـا الا القرن العشرون في منتصف عمره تقريبا .

هنا دهش صاحبي ، وظنني مازحا .

قلت له : على رسلك ، ان ذرة الأيدروجين أبسط الذرات تركيبا تتكون من نواة يدور حولهـا كهرب واحد (الكترون) . النواة تحمل شحنة كهربية موجبة والكهرب يحمل شحنة كهربية سالبة . أليست تتمثل الزوجية في هذه الذرة ؟

---

(١) سورة الذاريات آية (٤٩) .

قال صديقى : أكمل حديثك فهذا واضح ظاهر للعيان ·

ـ اننى أخشى أن تغمرك تلك العظمــة التى تتمثل فى كلمــات الله وفى خلق الله فلا تتبع بقية الحديث ·

قال صديقى : لا عليك ، استرسل فى حديثك فــكل ما فى الــكون يتحدث بعظمة الله ، ان تلك العظمة لو تدبرناها ما ذابت فيهــا أجسادنـ فحسب بل وأنفسنا أيضا ·

ـ اذن فسأنتقل بك الى بقية الذرات : ان كلا منها يتركب من نواة وكهارب تدور حولها وبينهما فراغ : أما النواة فتتكون من جسيمات مكهربة تحمل شحنة موجبة تسمى «بروتونات» وجسيمات غيرمكهربة أى لاتحمل شحنة كهربية تسمى « نيوترونات » : أما الكهارب التى تدور حول النواة فتحمل شحنة كهربية سالبة ·

ويتمثل الازدواج فى هذه الذرات بوجود جسيمات مكهربة وأخرى غير مكهربة ·

وتتمثل الزوجية أيضا فى الــكهربا التى بالذرة : فهى تحتوى على كهارب ذات شحنات سالبة وبروتونات ذات شحنات موجبة ، فتأمل دقة كلمات الله المتناهية : ازدواج فى كل شىء فى عموم تركيبه وتفاصيله : ان تكونت ذرة من أجسام ذات شحنات كهربية كذرة الأيدروجين فموجب وسالب ، وان تكونت من جسيمات أخرى فمكهرب وغير مكهرب والمكهرب سالب وموجب ·

الأجسام كلها اذن تتمثل فيها الزوجية التى أشار اليها كتاب الدهر الخالد ·

أفهمت أيهــا الفتى ؟ لو امتــدت أسئلتك فسننسى أنفسنا ، ولن ينبهنى واياك الا نور الشمس التى يتضــاءل نورها بجانب ما أودعه الله كتابه من آيات ·

قال صــديقى وقد أخذته الدهشة : حقا ان هــذا القرآن فى طياته العجب العجاب وان فى ألفاظه ومعانيه لسحرا يأخذ بالألباب ·

" إن كل نفس لما عليها حافظ "

سألنى زميل لا يقنع الا بما يراه أو يسمعه أو يلمسه أن أفسر له قوله تعالى : (ان كل نفس لما عليها حافظ) ٠

فقلت له مازحا : لقد قرأت معناها فقل لى ماذا قرأت ؟

قال : ان معناها ان على كل نفس رقيب ٠

فقلت له : وما فى ذلك ؟

أما آن لك أن تعلم أن هناك أشياء لا يمكنك أن تراها أو تدرك لها كنها ، لها تأثير غير مباشر على حياتي وحياتك وحياة الناس أجمعين ؟

ألم تقنعك عجائب العلم الحديث من مذياع الى تلفزة الى رادار تلك العجائب التي تسمعك وتريك وتكشف لك الحجب بوسائل لا تحسها أو تدركها أو تراها ؟

ألم يقنعك ما توصل اليه العلماء بأن تقسيم ما فى الكون الى مادة وطاقة انما هو اصطلاح سيعفو عليه الزمن ، فقد استطاعوا تحويل المادة الى طاقة ، وهم فى سبيل تحويل الطاقة الى مادة : ألم يقنعك ما تراه من تغيير المقاييس القديمة وانقلابها رأسا على عقب ؟ ألم يقنعك كل هذا ؟ ان هناك أشياء كثيرة لا نحسها لها تأثير غير مباشر على حياتى وحياتك وحياة الناس أجمعين ، ألم يقنعك ما تقرؤه عن تقدم العلم الروحى هذا التقدم العظيم ؟

ومع ذلك فمعنى هذه الآية هنا خلاف ما قرأت ، انها لا تتعلق بأمر روحى بل تتعلق بأمر مادى صرف ، ولم يجل معناها الكامل الا النصف الأخير من القرن العشرين ٠

النجم الثاقب :

هل قرأت قوله تبارك وتعالى « والسماء والطارق • وما أدراك ما الطارق • النجم الثاقب » وهى الآيات التى تسبق الآية التى نحن بصددها ؟

قال : نعم •

قلت : هنا يقسم تبارك وتعالى بالطارق النجم الثاقب • وقد فسر المفسرون الطارق بتفسيرات عدة : فمنهم من قال : إنه كوكب الصبح • وقال مؤلف اللسان : ما أعرف نجما يقال له كوكب الصبح ولا سمعت من يذكره فى غير هذا الموضع ، وتارة يطلع مع الصبح كوكب يرى مضيئا وتارة لا يطلع • وانى سائلك بدورى : ما كوكب الصبح ؟

ـ لا أدرى !

ـ انه يا صديقى كوكب الزهرة وهى ألمع الكواكب وأكثرها جمالا• عندما تظهر جهة الغرب فى أثناء الغروب يسميها الناس (نجمة المساء) وعندما تلمع فى الشرق يسمونها (نجمة الصباح) • فأى علاقة بين هذا وبين الطارق ؟

لقد فسر آخرون الطارق بأنه ينطبق على كل نجم ، وفسره غيرهم بأنه النجم المرتفع على النجوم من قول العرب (ثقب الطائر) أى (حلق ببطن السماء) وقال الفراء : هو النجم المضىء ولكن سياق الآيات يدل على معنى يخالف هذا تمام المخالفة •

قال صديقى : وما هو ؟

ـ ألا ترى معى أن معنى هذا ينطبق على الشهب ، لأنها لا تظهر الا ليلا ولأنها تثقب الفضاء وتنفذ خلاله ، وأن هناك تشابها بين هذه الآية الكريمة وبين قوله تبارك وتعالى فى سورة الصافات : (الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) •

ـ وأين حجتك اللغوية ؟

ـ ليس لدى دليل لغوى صريح ولـكن لدى قرائن : فأنت تعلم أن الطرق فى معناه الأصلى ـ الدق ، وأن الطارق من بين معـانيه السالك للطريق ، وأن المطروق من الكلأ ماضربه المطر ، ألا ترى أن فى هذه المعانى ما يعزز قولنـا ، اذ أن هنـاك تشابها بين تساقط المطر على الارض وبين تساقط الشهب الذى يطلق عليه أحيانا أمطار الشهب ٠

ومع ذلك فان الشهب قد تطلق على الدرارى من النجوم والكواكب٠ فليس بعيدا أن يطلق النجم على الشهاب ، وليس هذا مقصورا على اللغة العربية وحدها، بل هو شائع فى اللغات الأجنبية : ففى اللغة الانجليزية يسمون الشهب النجوم المنقضة (١) ، كما استعملها القرآن الكريم فى سورة النجم بقوله تبـارك وتعالى : (والنجم اذا هـوى ما ضل صاحبكم وما غوى) ٠

وقد فسر المفسرون النجم هنا بأنه الثريا ، وأنه سيهوى ويتناثر عند انتهاء العالم ، ولو علمنا أن العالم كله سيعاد بناؤه لا الثريا فقط (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده ـ وعدا علينا إنا كنا فاعلين) (٢) (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم) (٣) ـ لو علمنا ذلك لفهمنا أن المقصود بالنجم الذى يهوى انما هو الشهاب ، والآية الكريمة : (ان كل نفس لما عليها حافظ) اذا فسرناها طبقا لهذا استقام معناها مع ما سبقها ٠

قال صديقى : وكيف ذلك ؟

قلت : ألا تعلم أنه تسبح فى الفضاء أسراب من أجسام صغيرة يبلغ حجم بعضها حبيبـات الرمل وحجم بعضها حجم الزلط وقد يصـل وزن بعضها أطنانا ؟ وعندما تدخل هذه الأسراب فى نطاق جاذبية الأرض تهوى نحو الارض بسرعة كبيرة تزيد على أربعين ميلا فى الثانية ، فيتولد من احتكاكهـا بالغلاف الهوائى الحرارة الكافية لصهر مادتها واشتعالها ٠ وبذلك لايصل العدد الاكبر منها الى الارض لانه يكون قد تلاشى فى الجو ٠

---

(١) Shooting Stars

(٢) سورة الانبياء الآية (١٠٤) ٠

(٣) سورة الروم الآية (٢٧) ٠

أما القليل الذى يصل الى الارض فغالبا ما يكون فى حجم البندقة أو البرتقالة تقريبا ٠

قال صديقى : وما عدد ما يدخل الطبقة الهوائية منها ؟

ـ يقدر عدد ما يدخل الطبقة الهوائية منها يوميا بالملايين ، ولذلك فأنت ترى أنه لو سمح لها أن تنهمر على الارض دون عائق وبأحجامها الاصلية لجعلت الارض مكانا غير صالح لسكنى الانسان والحيوان ٠ وهذا ما يقصده الكتاب العزيز اذ لم يخصص بالنفس نفسا بشرية أو حيوانية٠

قال صديقى : وما الحافظ هنا ؟

قلت له : يظهر أنك لم تتبع ما أدليت به ـ الحافظ هنا هو الغلاف الجوى فهو يكون لنا حاجزا وقائيا يقينا شر هذه المقذوفات العاصفة التى لا يمكن أية مدفعية أن تساويها فى سرعتها ، وذلك ـ بسبب اشتعالها وتلاشى معظمها وانقاص حجم القليل منها الذى يصل الى الارض الى درجة لا تحدث ضررا ٠

وتظهر هذه الحقيقة واضحة فى الأجرام التى لا يغلفها الهواء ، فعلى سطح القمر مثلا تتساقط الشهب والصواعق بسرعة عظيمة فتحدث به فجوات كبيرة ؛ وهذا من بين الأسباب التى تجعل العيش على سطح القمر أمرا غير مستطاع ، ولولا الغلاف الهوائى على الارض لكان سكانها من انسان وحيوان مهددين بالفناء على الدوام بتلك المقذوفات من السماء التى تبلغ الملايين يوميا ٠ أليس هذا حقا ؟

ـ بلى وربى انه لحق بلا مراء ٠

ـ واذا أردت من العلم أن تستزيد فاليك ما كشفه العلم فى النصف الاخير من القرن العشرين بعد أن غزا الفضاء ، لتعلم كم تحوى آيات هذا القرآن العظيم من بهاء وسناء ٠

ان العلماء وجدوا أن جو الارض ينقسم الى طبقات خمس : التروبوسفير، والستراتوسفير والاوزونوسفير والايونوسفير والاكسوسفير. ونحن نعيش فى الطبقة السفلى وهى طبقة التروبوسفير التى تمتد الى علو يبلغ فى المتوسط نحو سبعة أميال فوق سطح البحر ، وهى طبقة عديمة الاستقرار وموطن التقلبات ، وتتضمن أكبر نسبة من الهواء ، اذ تحوى بالرغم من عدم سمكها ٧٥٪ من غازات الغلاف الجوى بأسره ٠ وتلى هذه الطبقة طبقة الستراتوسفير التى يبلغ سمكها نحو ٢٠ ميلا ، وهى طبقة

تجتاحها الرياح العاتية ، وتلى هذه طبقة الازونوسفير وتتدخل بعض الشيء مع طبقة الستراتوسفير وتختلط بها وترتفع درجة الحرارة فيها الى حدود ٥٣٠ فوق الصفر ، ذلك أن الأزون الذى هو نوع من الاكسجين يمتص جانبا كبيرا من الأشعة فوق البنفسجية التى ترسلها الشمس · أما الطبقة الرابعة الأيونوسفير فتبدأ من ارتفاع نحو ٣٠ ميلا فوق سطح الارض وقد تصل الى علو ٥٠٠ ميل أو أكثر ·

وقد درس العلماء كثيرا من خصائص طبقاتها الدنيا ، تلك الطبقات التى تمتد الى علو ٢٠٠ ميل أما الباقى فلا يزال غامضا ·

وتتضمن الايونوسفير عددا من الطبقات المشحونة بالكهربا والتى يطلق عليها اسم طبقات التأين ، وتنخفض درجة الحرارة داخل الايونوسفير فتصل الى حدود ٩٠° تحت الصفر على ارتفاع ٥٠ ميلا ، الا أنها ترتفع بعد ذلك فتصل على ارتفاع ١٠٠ ميل الى ٥٤٩° فوق الصفر · ويتحتم على مرتادى الايونوسفير حماية أنفسهم من أشعة الشمس فوق البنفسجية ومن الاشعة الكونية الفتاكة ومن أمطار الشهب القاتلة ·

وفى الطبقة الخامسة الاكسوسفير ينعدم الغلاف الجوى تقريبا تدريجيا حتى يصل الى درجة الفراغ ، ولم يعرف العلماء الا اليسير عن هذه الطبقة ·

هذا هو جو الارض الذى فى أعاليه وفيما يليه من الفراغ الكونى زمهرير يفوق زمهرير المناطق المتجمدة ودرجات حرارة عالية تربو على ما نألف فى صحارى المدارين ، مع أشعة فتاكة تقتل الاحياء ويفوق خطرها أخطار القنابل الذرية ، وتيارات شهب تتحرك بسرعة ٤٠ ميلا فى الثانية وتهوى بلا هوادة كالمطر المتواصل ·

ماالذى يحفظنا من كل هذه الاهوال والاخطار التى جهلنا معظمها حتى أيامنا هذه ؟

ان المحيط الهوائى وعلى الاخص قاعه هو الذى يقينا شر أشعة الشمس فوق البنفسجية وشر الأشعة الكونية الفتاكة وشر أمطار الشهب القاتلة · ولولاه ما كانت الحياة ممكنة على سطح الارض ·

وقاع المحيط الهوائى كما أسلفنا أكبر أجزاء هذا المحيط كثافة ، وينجم عن ازدياد كثافة الهواء ازدياد معامل احتكاك الشهب به ، ومن ثم امكان احتراقها قبل أن تصل الى سطح الارض ، كما أن كميات ضئيلة جدا من أشعة الشمس فوق البنفسجية ومن الاشعة الكونية يمكنها اختراق طبقات الجو السفلى بسبب كبر كثافة هذه الطبقات .

عندئذ هز صديقى رأسه ، فقلت : ما يدور بخلدك ؟ قال : ليس له عندى تعبير أو بيان ! انه عجب يعقد اللسان، ويستولى على الجنان ، ويبث فى القلب ايمانا فوق ايمان .

الضغط الجوي

(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يـ
يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء) (١) ٠

ألهواء ضغط ؟

ـ نعم ان له ضغطا ما دام له وزن ٠

وكلما ازداد وزنه ازداد ضغطه ، فأنت اذا ارتفعت الى أعلى قل
الهواء الذي يعلوك فيقل ضغطه تبعا لذلك ، ويقل ضغط الهواء تدر
كلما بعدنا عن سطح الارض ، فضغط الهواء على قمة جبل أقل بكثير
ضغط الهواء عند قاعدته ٠

وأول من اكتشف أن للهواء ضغطا هو العالم (تورشيلي) ، و
متى كان ذلك ؟

كان ذلك في منتصف القرن السابع عشر تقريبا : كشف أن لل
ضغطا قاسه وقدره بما يساوي وزن ستة وسبعين سنتيمتر من الزئـ
وكان كشف تورشيلي هذا خطوة تلتها خطوات، اذ عكف العلماء على در
الهواء وغازاته، ثم حاولو قياس ارتفاعهومعرفة مقدار تخلخله، واستـ
أخيرا بأحدث وسائلهم ـ الصواريخ ـ لمعرفة الحقيقة كاملة ، ولكن الـ
لم تتكشف بكامل صورتها حتى الآن أمام أعينهم حتى بعد هذه الـ
المتتالية ٠ انهم حاولوا تذليل الجو وتعبيد مسالكه ، فوقفت دونهم صـ
تغلبوا عليها بالعلم ، ومن بين هذه الصعاب مسألتان أشار اليهما كـ
الله الأعظم ٠

الأولى : صعود الانسان في السماء ٠

الأخرى : ما يحدث للانسان في أثناء هذا الصعود ٠

---

(١) سورة الانعام من الآية (١٢٥) .

وقد ظن الناس حينما سمعوا هذه الآية الكريمة أن القرآن انما قصد « الصعود » مجازا لا حقيقة ، وفسر الشراح هذه الآية بمختلف التأويلات اعتقادا منهم أن صعود الانسان في الهواء ضرب من المستحيلات ؛ اذ لم يكونوا يعلمون أن الانسان سيصل الى ما لم تصل اليه الطيور السابحات ، فقد غزا الانسان الجو بطائراته ومطاوده وارتفع بصواريخه وأقماره الصناعية الى أجواز الفضاء وهو يحاول الآن أن يغزو كواكب السماء ٠

أما الظاهرة التى تصحب هذا الصعود والتى أشار اليها القرآن الكريم فتتضمن وجه الاعجاز الآخر فى هذه الآية ، فالانسان عند صعوده فى الهواء يضيق صدره ، وكلما ارتفع اشتد هذا الضيق حتى يصير فى مأزق حرج لا يمكنه التخلص منه الا بالوسائل التى هداه اليها العلم والتي يستعملها الطيارون اليوم ٠

ويصحب الصعود فى الجو أربع ظواهر :

١ ــ قلة الضغط ٠

٢ ــ قلة الاكسيجين ٠

٣ ــ برودة الجو وتقلب درجة الحرارة ٠

٤ ــ « انعدام » الوزن اذا تغلغل الانسان فى الفضاء ٠

فكلما ارتفع الانسان قل الضغط فتخلخل الهواء ٠ وهذا يسبب للانسان ضيقا فى التنفس يشتد كلما زاد الارتفاع ٠ وقد يؤدى نقص الضغط الى تمدد الغازات فى معدة الطيار وأمعائه ، فيسبب له تقلصات عنيفة ٠ وهناك أيضا خطر حدوث انتفاخ يدفع الحجاب الحاجز الى أعلى فيضغط على القلب والرئتين مما يسبب الاغماء للطيار أحيانا ٠ وكذلك يكون الطيار معرضا لنوبات حادة من السعال لأن الهواء فى الارتفاع الشاهق تنقصه الكثافة الكافية لتنظيف قناة التنفس من المواد المهيجة لها ٠

وينتج عن قلة الضغط ظاهرة أخرى ، فكلما ارتفع الانسان الى أعلى نقص الضغط الجوى ، على حين يظل الضغط الداخلى لجسمه كما هو ، فيختل التوازن بين الضغطين :

(أ) الضغط داخل جسمه الذى يظل دون تغيير ٠

(ب) الضغط الخارجى للهواء الذى يأخذ فى التناقص تدريجيا ·

فاذا وصل الانسان الى ارتفاع عظيم لم يصبح فى الامكان حفظ التوازن بين هذين الضغطين ، فينبثق الدم من فتحات الأنف والفم وتنفجر طبلة الاذن الى الخارج ويصحب ذلك اختناق ثم وفاة أكيدة · هذا اذا لم تتخذ الاحتياطات الكافية ، ومن بين ما اهتدى اليه العلماء لتجنب هذا « رداء الضغط العالى » الذى تدخل عليه باستمرار تحسينات جديدة ·

وهذه الظواهر هى التى حدثت فى تجربة تيساندييه عند صعوده مع اثنين من رفقائه فى بالون سنة ١٨٧٥ م – فقد ارتفع بهم الى علو ٢٩٫٠٠٠ قدم أى الى تسعة آلاف متر تقريبا : توفى رفقاؤه ، أما هو فانه فقد شعوره فجأة عندما وصل البالون الى ارتفاع ٢٥٫٠٠٠ قدم ، ولم يشعر قط بما حدث بعد ذلك ·

وشر ما يصيب الانسان عند الصعود فقد قوة التمييز والارادة ، وهذه الظاهرة تأتى بغتة وبدون سابق انذار ·

أما الأكسيجين ، وهو الغاز الذى لا يمكن الانسان أن يحيا بدونه – فهو يختفى تماما من الجو على بعد ٦٧ ميلا · وينتج من قلة الاكسيجين عدم أكسدة الدم ومن ثم عدم حدوث حرارة فى الجسم مما يسبب للجسم اعياء وضعفا وتصيبه برودة يتقلص لها جسمه ويقشعر لها بدنه ·

هذا فوق تقلب درجات الحرارة : فمن برودة تفوق زمهرير المنطقة المتجمدة الى درجة حرارة أعلى بكثير جدا من درجة حرارة المدارين ، ففى قمة طبقة التربوسفير تبلغ درجة الحرارة نحو ٦٧ درجة تحت الصفر · وترتفع درجة الحرارة فى الازونوسفير الى حدود ٣٠ درجة فوق الصفر ، وتنخفض فى الايونوسفير الى حدود ٩٠ درجة تحت الصفر على ارتفاع ٥٠ ميلا الا أنها ترتفع بعد ذلك بشكل غريب فهى على ارتفاع ١٠٠ ميل ٥٤٩ فوق الصفر ·

وهذه النظرية التى احتوتها هذه الآية الكريمة لم يفطن اليها العلم الا حينما جاب أجواز الفضاء ببالوناته وطائراته ، ولذلك فالطائرات التى ترتفع الى علو شاهق لابد أن تكون محكمة البناء يلبس طيارها ملابس مزدوجة بينها أجهزة كهربية لتدفئتهم فتدرأ عنهم برودة الجو · كما لا بد أن يلبس الطيار على فمه وأنفه قناعا يمده بالاكسيجين ·

أما المطاود التى تستخدم فى دراسة طبقات الجو العليا والصواريخ والأقمار الصناعية فلابد أن تكون مجهزة بآلات لموازنة الضغط وأخرى للتدفئة ، واذا كان بها طيارون أو كائنات حية فلابد أن يكونَ بها ما يمد الطيار أو الكائن الحى بالاكسيجين ٠

اذن فكلمة العلم قد التقت هى والقرآن الكريم ٠ نعم التقيا بعد أن ظل العلم تائها فى بيدائه باحثا متقصيا يهتدى وقتا ويتعثر أوقاتا حتى عرف الحق بعد أن قضى فى تجاربه القرون الطوال ! ٠

مستوى الماء

(مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان «١») .

تشير الآيتان الكريمتان الى أن من آيات الله تبارك وتعالى لعباده أن البحار اذا تقابلت لا يطغى ماء أحدها على ماء الآخر وذلك لأن الله قد جعل بينهما حاجزا من قدرته ، وقد جعل ماءها جميعا فى مستوى واحد تقريبا برغم تفاوت قيعانها في العمق وما يبدو للعين من ارتفاع أحدهما وانخفاض الآخر . وهذه الحقيقة لم يهتد العلم اليها الا حديثا اذ لم يتوصل اليها الا فى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا .

وليس أدل على جهل العالم بها قبل ذلك التاريخ من أن نابليون بونابرت حينما غزا مصر - يريد انشاء امبراطورية تحاكي امبراطورية الاسكندر ... حشد معه - بجانب حملته البرية والبحرية حملة علمية ، يحقق بها فتحا لا يقل أهمية عن فتحه الحربى ان لم يفقه : ألا وهو وصل البحرين الأبيض والأحمر بقناة يتمكن بها من حشد أساطيله لمهاجمة الهند وانتزاعها من يد انجلترا عدوته اللدود .

- ولكن ما الذى حال دون ذلك ؟ .

- حال دون ذلك جهل علمائه بتلك الحقيقة التى تضمنها كتاب الله قبل ذلك بثلاثة عشر قرنا : اذ قالوا باستحالة اتصال البحرين ، لأن أحدهما وهو البحر الأحمر أعلى بكثير من الآخر ، فلو تحقق هذا المشروع لطغى ماؤه فاغرق الدلتا وطور سيناء !.

وهكذا قضى على المشروع تخبط هؤلاء العلماء ، ولكن ما هى الا بضع عشرات من السنين حتى حفرت القناة بعد أن اهتدى البشر الى الحقيقة التى تضمنها كتاب الله من أن البحار لايبغى أحدها على الآخر عند اللقاء .

---

(١) سورة الرحمن الآيتان (١٩ ، ٢٠) .

وهكذا تنتقل الفروض العلمية من تيه الى تيه حتى تثبت وتستقر ، بيد أن حقائق الدين ثابتــة لا تغيير فيها ولا تبديل ، لا تلعب بها الأهواء ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لا تأبه بتغير الايام ولا بتضارب الفروض والأفهـام ، بل تظل أثبت من الطود تسخر صامتة من الخاطئين ولا يهزها حديث المضللين .

وقد ذهب بعض المفسرين في تفسير هاتين الآيتين الى معنى آخر اذ قالوا : ان الله يعنى بالبحرين الانهار والبحار ويستدلون على ذلك بقوله تبارك وتعـالى في سورة الفرقان ، في الآية الثـالثة والخمسين : (وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) . وقد عنى الله عز وجل بالبحرين في هذه الآية النهر والبحر .

وقد ورد في القـرآن بمعنى النهر في سـورة فاطر بقوله تبـارك وتعالى (وما يستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) «١» .

والفرق بين آيتى سورة الرحمن (مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان) وبين آيتى سورة الفرقان وفاطر أن الله تبارك وتعالى نص في الآيتـين الأوليين على أن البحرين لا يبغى أحدهمـا على الآخر ، أما في الآيتين الأخيرتين فلا نص على ذلك ، اذ أن النهر حينما يصب ماءه في البحر قد يكون أرضا جديدة ، وبذلك فالنهر في الحقيقة يبغى على البحر . وهذا مما يدل على أن المقصود في آيتى الرحمن : بحران لا بحر ونهر .

أما قوله تبـارك وتعـالى في آية الفرقان ان بينهما حاجزا فمعنى ذلك أن الله تبارك وتعالى جعل ماء النهر لا يؤثر في ماء البحر فيغير ملوحته ؛ كما لا يؤثر ماء البحر في ماء النهر لأن النهر الذى يصب في البحر يكون عادة في مسـتوى أعلى من مسـتوى البحر .. كمـا أنك اذا شاهدت نهرا يصب في بحر رأيت ذلك الحاجز بوضوح : رأيت النهر يشق بتياره ماء البحر متخذا له طريقا مستقلا كأنه يسير وسط يابس حتى يمتزج الماءان في النهاية .

والأشـد غرابة من هذا أن البحار المتصلة لا يختلط ماؤها ولا

---

(١) من الآية (١٢) .

احياؤها كأن بين كل بحر وآخر حاجزا غير ظاهر للعيان لم يقمه انسان ولكن أقامته يد الرحمن . ولا يستثنى من ذلك الا الحركات التى تتحكم فيها العوامل الجوية والطبيعية الأخرى : التيارات السطحية والباطنية .

ويرجع هذا الى أن مياه كل بحر تغاير مياه البحار الأخرى فى صفاتها الكيماوية مما يمنع اختلاط المياه والكائنات بعضها ببعض ، ويجعل كأن بينها برزخا وحجرا محجورا .

ويشاهد هذا بجلاء فى البحر الاحمر والمحيط الهندى : انهما يلتقيان ولكن مياه هذا لا تختلط بمياه ذاك . والكائنات فى هذا البحر تغاير الكائنات فيما جاوره . واذا حدث وكان هناك مد أو ريح عاصفة فان يسيرا من مياه أحد البحرين يطفو على مياه الآخر ، ولكن هذه المياه حين تنتقل ، تنتقل بكائناتها معها . وبعد قليل حينما يزول ما سبب انتقالها ، تعود الى مكانها حاملة معها أحياءها .

وهكذا اذا توغلت المياه أو الكائنات قليلا عادت أدراجها . وليس هذا بمقصور على المياه السطحية فحسب ، بل يشمل كذلك المياه الباطنية وأحياءها .

ولو فرض وارتفعت بعض الاحياء من الطبقات العميقة الى بعض الطبقات العليا لادركها الموت كما لو خرجت أسماك الطبقة العليا الى البر .

ما سبب هذا ؟ هل هناك حائط من صخر وصوان ؟ كلا ، بل هناك كما فى كل مكان قدرة خالق الاكوان : لقد وجد الباحثون أن لكل من البحرين درجة حموضة خاصة ومن شأن ذلك أن يمنع بغى مياه أحدهما وطغيانه على الآخر ، كما لا تصلح الكائنات البحرية فى أحد هذه البحار للمعيشة فى البحر الذى يجاوره ، ولذلك فالبحران وما فيهما لايختلطان وان كانا يلتقيان ، فتبارك من له الحول والسلطان .

فوق قدح من القهوة

اجتمع الصديقان ذات أمسية فى منزل أحدهما ، وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث وهما يرتشفان قدحا من القهوة •

الضيف : ألا أغنية جميلة ؟

المضيف : يا غلام ، أحضر جهاز التسجيل •

الضيف : عجبا لهذا الانسان الذى أنطق الجماد !

المضيف : لا تعجب فقد علم الله الانسان ما لم يعلم ، انه لم يفعل شيئا سوى أن ألم ببعض أسرار الطبيعة واستغلها لمصلحته ، وهل هذا شيء بجوار ما نراه كل يوم من عجائب ؟ ألا تعلم أنه يسجل الرسائل فى الاقمار الصناعية وهو رابض فى مكانه على الارض ، لتذيعها آلات الارسال فى هذه الاقمار فى الاوقات والساعات التى يحددها ؟ ألا تعلم أنه أرسل أقمارا تصور المواقع التى تمر عليها ، وترسل صورها اليه ، وهى سابحة فى الفضاء ؟ ألم تسمع أن خللا ميكانيكيا طرأ على أجهزة التصوير فى أحد هذه الاقمار ، فأصلحه الانسان وهو على الارض من مكان بعيد ؟ ليس هذا فحسب فان الآلات التى يودعها هذه الاقمار تسجل من تلقاء ذاتها المعلومات عن الحالة الجوية ، والاشعة الكونية التى تصادفها فى فلكها وترسلها اليه •

الضيف : ان الانسان لربه لكنود ، انه قد توصل الى هذا بعلمه مع ضعفه الشديد ، ومع ذلك فهو يرتاب فى أن الله خالقه يسجل عليه أعماله وأقواله وحركاته !

« اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » •

أليست هذه فى ذاتها عملية تسجيل بسيطة لما تباشره هذه الاعضاء من أعمال ، يتبعها ترديد لهذا التسجيل ، السر الذى اهتدى

اليه الانسان من أمد غير قريب ؟ ولقد وعد الله تبارك وتعالى عباده أن يريهم الادلة على صدق كلماته فى محكم آياته :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »(١) ومن أصدق من الله قيلا ؟

لقد أصبحت عملية التسجيل عملية عادية يباشرها الصغار والكبار. ولعل انسانا يسأل : هل تبقى هذه التسجيلات بعد أن يتحلل جسد الانسان الى ذرات ؟ وردنا على ذلك أن الاعضاء وهى حية ليست مركبة الا من جزئيات وذرات تجمعت فكونت أجسامنا ، كما تكونت منها بقية الاجساد ، وسيبعث الله الانسان على هيئته الاولى كما كان فى الحياة بأعضائه جميعا ، وما انطبع عليها من آثار ، وهذه عملية من السهولة بمكان ، فالذى خلق الاكوان والانسان قادر أن يعيدهما الى ماكانا عليه دون مشقة أو عناء : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم » (٢) ٠

ـ اذن فلنحترس من أجسامنا ، فهى رقيب أمين علينا : تحصى ما نقوله وما نعمله ، لا تترك صغيرة ولا كبيرة الا وسجلتها ، انها عملية تلقائية تتم فى سهولة ويسر دون أن نشعر ، وليس لبشر منصف بعد ذلك أن يرتاب ، فقد أرانا العلم أن هذه عملية فى غاية البساطة . فأنا وأنت وغيرى وغيرك فى استطاعتنا مباشرة هذه العملية دون أدنى عناء ، بل انها أصبحت هواية لذيذة يستطيعها الصغار والكبار ٠ فلنحترس من ألسنتنا فأقوالنا تسجل علينا ، كما تسجل اليوم أغانى المغنين وأحاديث المتكلمين : «ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد» (٣)٠

وان صحيفة كاملة ، أو شريطا مسجلا على حد تعبيرنا الحديث سجلناه بأنفسنا فى أجسامنا دون أن نشعر ، سيرى كل انسان ما قدمت يداه ٠

(وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (٤) ٠

ألم تر كيف يسجل رجال المخابرات أقوال المتهمين وهم فى غفلة

---

(١) سورة فصلت .

(٢) سورة الروم الآية (٢٧) .

(٣) سورة ق .

(٤) سورة الاسراء .

لا يشعرون ؟ ان رجال مخابراتنا انما هى فى أجسامنا التى هى شهود لنا أو علينا فى المحكمة الكبرى التى لن تحتاج الى مناقشة أو شهود يتضاربون ويتجادلون ، فصحيفتنا قد سجلناها بأنفسنا ، ونحن لانحس ولا نشعر . لم يتدخل فيهـا أحد غيرنا قط ، انه اعتراف مسجل ؛ والاعتراف سيد الادلة ، انه اعتراف أبعده الله عن المؤثرات التى تدخل الريبة اليه ، ان كل عضو من أعضاء الجسد به شريط تسجيل خاص به .

(ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون . حتى اذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء ، وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون) (١) .

ولقد أنطق الانسان الجماد فى عديد من مخترعاته : فى الحاكى وشرائط المذياع المسجلة والتسجيلات الصوتية ، ولم يقتصر على هذا بل انه اخترع جهازا الكترونيا يقرأ الصحف والمجلات وغيرها من المطبوعات للعميان . كما اخترع تليفونا يسجل الرسائل التى تصل الى صاحبه فى أثناء غيابه عن منزله أو عمله ، ثم يعيد عليه ما سجله عند عودته أو اذا اتصل به من الخارج مستعملا شفرة خاصة .

فهل اذا كان هذا المخلوق الضعيف توصل بعلمه المحدود الى هذا ، فهل يشك امرؤ فى قدرة خالقه على انطاق أعضاء جسمه ؟ ألا ان ماتوصل اليه الانسان انما هدى اليه (والله خلقكم وما تعملون) (٢) تحقيقا لكلمة الله الذى وعدنا أن يرينا آياته ، وقد صدق وعده ، فهاهوذا العلم يكشف لنا كل يوم من أسرار الكون ما يفسر فى كلمات الله : ان الانسان لم ينطق الجماد فحسب ، بل جعل له عيونا أدق من عيون البشر ، فها هى ذى الاقمار الصناعية تصور ببصرياتها الكيماوية المواقع من على ارتفاع خمسمائة ميل أو ما يزيد ، وها هو ذا الانسان يسجل الأحاديث فى شرائط على بعد مئات الأميال ، لترسلها آلات التسجيل فتلتقطها آلات المذياع لتذيعها لمن يود سماعها فى هذا العالم الرحيب .

والله أعدل الحاكمين قد وضع للمحاكمة الكبرى أدق الاجراءات وأحكمها وأسرعها وأكثرها توفيرا للوقت ، وقد راعى أن تكون الادلة أدلة حاسمة ، لا تقبل جدلا ولا يمسها ريبة ، فأعضاء المرء قد اتخذها الله شهودا له أو عليه اذ هى التى باشرت وسجلت ورددت .

فتبارك الله أحسن الخالقين وأعدل الحاكمين وأعلم العالمين ....

---

(١) سورة فصلت .

(٢) سورة الصافات آية (٩٦) .

وإن من شيء إلا يسبح بحمده

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم﴾ (١)

التسبيح التنزيه ، وسبحان الله معناه : التنزيه لله . وقد يكون التسبيح بمعني الصلاة ومنه (كان من المسبحين)(٢) فالآية بمقتضى المعنى الاول يكون معناها : ان كل شيء في الوجود يدل على كمال الله وينزهه عن النقص ، وهذا المعنى هو الذى يأخذ به أهل الظاهر . فهم لايتقيدون بحرفية المعنى ، وانما يأخذونه بمعناه المجازى ، فكل شيء في الوجود ينزه الله تبارك وتعالى ويمجده ويتحدث بعظمته حديثا لا تسمعه الآذان ، ولكن تدركه العقول والأفهام .

وهم ليسوا في حاجة الى أن يسمعوا مادامو يرون دلائل العظمة واضحة أمامهم ، فذلك الكون الذى لاتحيط به الافهام ، وتلك الافلاك التى لاعداد لها ، وهذا العالم الذى كلما ازداد الانسان فيه توغلا تبين له مدى جهله . وتلك النجوم والكواكب التى تندفع في هذا الفضاء اللانهائي بسرعة لا يتصورها العقل ، وتلك الشموس والاقمار ، وتلك الذرات التى هى شموس صغيرة ، وهذا النبات الذى ينمو ويترعرع طبقا لقوانين ثابتة يروى بماء واحد وينبت في صعيد واحد ، تختلف ثمراته وألوانه وأحجامه هذا الكون يتحدث بعظمة الله حديثا أروع من كل حديث تسمعه الآذان ، وينطق بكمال خالقه نطقا أبلغ من كل كلام ينطق به لسان ، أو يرتقى اليه بيان ، وليس الانسان في حاجة الى أن يسمع حديثا له ، مادام يرى جلاله أمامه ماثلا وكماله ظاهرا واضحا .

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه الواحد

---

(١) سورة الاسراء .

(٢) الصافات من آية (١٤٣) .

(ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) (١) ٠

أما أهل الباطن الذين لا يؤمنون بقدرة الحواس البشرية على ادراك الحقيقة ، والذين يعتبرون الظواهر المادية وهما فهم يقولون : ان الجماد يسبح بحمد الله قالا وحالا ، كما يسبح بذلك النبات والحيوان ، ويمكنك أن تسمع تسبيحهما اذا صفت نفسك ووصلت الى طريق الحق ، وحجتهم فى ذلك أننا لو فسرنا الآية على أن جميع ما فى الكون ينزه الله عن النقص فقط ، لكان التفسير قاصرا : فالانسان أدرك ويدرك وسيدرك أن الله أتقن كل شيء خلقه وأن جميع ما فى الكون يتحدث بكمال الله ، وهذا يتنافى مع نصف الآية الأخير (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) فنحن نفقه وندرك فعلا كمال الله فيما خلق ٠ فلا بد اذن من أن ينصب معنى هذه الآية على أن الأشياء كلها تسبح بحمد الله قالا ، ولكن آذاننا تقصر عن سماع تسبيحها ٠ والصوفيون يستشهدون على ذلك بسماع داود عليه السلام تسبيح الأحجار والأشجار والأطيار عندما كان يسبح بحمد الله بمزاميره : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) (٢) كما يسوقون على ذلك دليلا آخر وهو تسبيح الحصى فى كف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ٠

ان كل شيء يسبح الله بلغته : الانسان بلغته والحيوان بلغته ، والنبات بلغته ، والجماد بلغته ٠ وهل للحيوان والنبات والجماد لغات ؟ لم لا ؟ ٠

نعم اننا نجهل ذلك والجهل بالشيء لا يتخذ دليلا على عدم وجوده ، كما أن سمعنا له طاقة محدودة من السمع، ولله فى ذلك حكمة٠ اذ لو كان سمعنا قادرا على سماع جميع الأصوات مهما ضؤلت، لتحولت حياة الانسان الى صخب دائم ، وجلبة مستمرة تقضى على كيانه العصبى ، وليس عدم سماع الانسان للأصوات دليلا على عدم وجودها : فالأصوات قد تنخفض ذبذباتها لدرجة ألا تستطيع الاذن تبيانها ، وقد تعلو ذبذبتها بدرجة ألا تستطيع الاذن متابعتها ٠

---

(١) سورة البقرة آية (١٦٤) ٠

(٢) سورة الانبياء من آية (٧٩) ٠

وقد أثبت العلم أن مختلف الفصائل الحيوانية والطيور تتفاهم معا بطريقة لا ندركها ، وأن لبعضها لغات تختلف فى نبراتها وقوتها وأنغامها اختلافا عجيبا تبعا للسن والجنس والعواطف والأفراد . ومن أمثلة ذلك حيوان (الوسقاس) فى مراعي أمريكا الجنوبية ، التى يطلق عليها اسم (البمباس) . ومن عادات هذه الحيوانات أن تسكن فى قرى متجاورة ، كل قرية منها من عشرين أو ثلاثين حفرة فتحاتها متلاصقة بعضها ببعض، تنفتح على نفق عام وتحمل هذه الحيوانات الرماد الناتج من الحفر الى مسافة قريبة فتكون رابية علوها نحو قدمين أمام كل قرية . وعند الأصيل يتبادل سكان القرى الزيارات ، وتجلس هذه الحيوانات على هذه الروابى تثرثر بطريقة ودية ، وتتنوع أصواتها فى نبراتها ونغماتها وترنيماتها تنوعا كبيرا .

ولم يثبت العلم هذا فحسب ، بل أثبت أن فصائل من الحيوان تقيم لواء العدالة بينها ، وتعرف نظام التقاضى ، فتستمع وتتناقش وتنزل بالمذنب القصاص . وقد روى (ادموند سون) من بين عجائب مشاهداته فى هذا الشأن ما شاهده بجوار سيتلاند ، اذ اجتمعت جماعة من الزاغ وهو طائر من أنواع الغربان يسمى غراب الزيتون فى أحد الحقول الرحبة، ومثلت طائفة منها أمامها ، ثم عقب ذلك ضوضاء وجلبة أخذت تشتد وتعلو رويدا رويدا حتى احتدمت . وبعد هدأة يسيرة انهالت جماعة الاطيار التى نصبت نفسها منصب القضاة على أترابها التى أوقفتها موقف الاتهام ، انهالت بمناقيرها على عيونها ورقابها حتى أدمتها ، واستمرت كذلك حتى قتلتها . وانتهت عندئذ المحاكمة وتم التنفيذ فى جلسة واحدة ، ثم رفعت الجلسة وانصرف القضاة بالتحليق فى الجو وتفرق الجميع كل الى وجهته !

واتفق أن مر البحار أ . كوكس من علماء الحيوان بدوحة عظيمة كان يأوى اليها طائر اللقلاق وهو طائر حسن الصوت ، فاستمع الى جلبة شديدة وأصوات عصفورية متفرقة ، ثم تبين له أن عشرات اللقالق أحاطت بواحد منها وأوقفته موقف المذنب ، وكانت شهود تلك الجلسة مئات اللقالق ، وكانت تلك الدوحة الكبيرة هى ساحة القضاء . انتهت ضجة المرافعة وتمت المحاكمة فساد سكون يسير، اضطرب الطائر المتهم وأهوى بجناحيه الى أسفل فى ذلة وانكسار ونكس رأسه وأبدى خضوعا واستسلاما ، دلا على الاعتراف بما اقترف والتماس العفو والتجاوز عن زلته واصدار الحكم باخلاء سبيله ، ولكن المحكمة أعرضت عنه ولم تأخذها شفقة به ، وقررت ادانته وأصدرت حكمها عليه نهشا ، ولم تلبث المحكمة

أن انهالت عليه ضربا بمناقيرها الحادة فى سرعة فائقة وتشف غريب حتى لفظ أنفاسه الاخيرة، ثم رفعت الجلسة وطار القضاة أسرابا فى الجو وتفرق النظـــارة !

وليس هذا فحسب ، فبعض الحيوانات تستجيب لأوامر الانسان ونواهيه وما يحدث من أنغام : فكم شاهد سكان البادية والحضر الجياد وعلى ظهورها فرسانها ترقص على أنغام الموسيقى كأنها فنان أصيل ٠ وها هى ذى القرود تستجيب لاوامر مدربيها والقطط والكلاب لاوامر أصحابها ونواهيهم ٠ والببغاء يقلد حديث أصحابه ويردده ٠ وهناك طائر يفوق الببغاء كثيرا فى تقليد صوت الإنسان وأحاديثه واسمه (المينا) وسكنه الهند واندونيسيا والملايو ٠ وها هو ذا الكروان والعندليب وطير الكنارى تشجى الناس بأغانيها ٠

لقد أمكن بعض الحيوانات والطيور أن تفهم بعض ألفاظ الانسان، ولكن الانسان للاسف لم يتوصل الى الآن لمعرفة القليل جدا من مدلولات أصوات هذه الحيوانات ، نحن لا نفهم أصواتها ولكن عدم فهمنا لاصواتها ليس معناه انتفاء وجود لغاتها ، فلو تقابل رجلان يتكلمان لغتين مختلفتين وتحادثا كل بلغته التى لا يفهمها الآخر ، لكان مثلهما تماما كمثل انسان يخاطب طيرا أو طيرا يخاطب انسانا ٠ وهذا ما عبر عنه الشاعر العربى فى أبياته الرقيقة :

رب ورقاء هتوف فى الضحى	ذات شـجو صـــدحت فى فنن
ذكرت الفـا ودهرا سـالفا	فبكت حزنا فهاجت شجنى
فبكائى ربمـا أرقهـــا	وبكاها ربمـا أرقنى
ولقد تشـكو فمـا أفهمها	ولقد أشـكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها	وهى أيضا بالجوى تعرفنى

كل يشكو همه بلغته التى لا يفهمها الآخر ، ولـكنهما يشعران عن طريق الاحساس المشترك بالوجد الشديد ٠

وبعض الطيور والحيوانات لها من العواطف ماهو أشد مما يتصف به الانسان : بعضها يتميز بالغيرة الشديدة ، وبعضها بالوفاء الذى يضرب به المثل ، وبعضها بالجرأة المتناهية ، فكم سمعنا عن كلب أمسك عن الطعام حتى الموت بعد رحيل راعيه ، ولقد توصل الانسان الى أن لبعض الحيوانات خصائص حسية تفوق لديه : فالوطواط مثلا له حاسة سمع حادة ترشده فى الظلام وتصدر منه مناغات ذات ذبذبة عالية جدا فوق

ما تستطيع آذاننا سماعه • وهذه الموجات الصوتية تصطدم بالأشياء في طريق طيرانه ، وترسل صداها الى آذان الوطواط فتجنبه الاصطدام بها وبالوطاويط الأخرى ، وقد قيل : ان الانسان أخذ فكرة الرادار من الوطاويط ، فالرادار يرسل التموجات الاذاعية وترد اليه بالطريقة التى يتبعها الوطواط نفسها • ويمكن الكلاب أن تستجيب لأصوات لا يمكن أى انسان أن يسمعها • كما أن لبعض الحيوانات بصرا يرى ما لا يراه الانسان ، فطائر البطريق (١) يمكنه أن يرى الاسماك فى الماء من علو كبير ، وينقض عليها ويقتنصها ، ويمكن الصقر المحلق فى الهواء على ارتفاع كبير أن يرى الفيران المتحركة على الأرض فى الحشائش ، كما تستطيع الطيور الجارحة أن ترى جثث الحيوانات الميتة من مسافات بعيدة وهى فى الجو طائرة ، وتتمتع الكلاب بحاسة شم قوية جدا تمكنها من أن تتعرف على شخص رأته مرة واحدة أو شمت شيئا من آثاره ، كما يمكنها تتبع أثره حتى تجده ، ولذلك استخدمها الشرطة فى الكشف عن الجرائم والمجرمين •

لقد قطع الانسان شوطا كبيرا فى دراسة الطير والحيوان والحشرات والنبات ، ولكن لا يزال أمامه الكثير ليجتليه • لقد توصل الانسان الى أن للحيوان والطير لغة فى نطاق محدود • انه يقول : ان الاصوات التى تصدر عن الطير والحيوان تحمل معانى مختلفة يعبر بها عن الخوف والطرب والرغبات بالعواء أو النباح أو السقسقة ، كما يمكن الحيوان اذا درب ووصل الى درجة من الذكاء أن يستجيب لبعض ألفاظ البشر ، ولكن الانسان للآن يعتقد أن الاصوات التى يحدثها الحيوان لا تستطيع التعبير عن الافكار •

وأول كتاب أنبأنا أن للحيوان والطير لغات هو القرآن الكريم ، لغات ليست محدودة كما أنبأنا العلم للآن ولكنها منطلقة • ولقد أخبرنا هذا الكتاب الكريم بذلك بطريقة غير مباشرة وطريقة مباشرة : أما الأولى فبقوله تبارك وتعالى فى سورة الانعام :

(وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم الى ربهم يحشرون) (٢) ، ويفهم من ذلك

---

(١) طير السمك •

(٢) سورة الانعام آية (٣٨) •

أن الحشرات والحيوانات والطيور تنقسم الى أقوام مثلنا لها ما لنا من نظام ولغات ووسائل تعينها على البقاء ·

أما الأخرى ففى موضعين : أحدهما ذلك الحوار العجيب بين نبى من الانبياء ـ سليمان بن داود عليه السلام ـ وبين طائر يظن الناس أن صوته غير ذى نبرات مختلفة وهو الهدهد · لقد علم الله سليمان منطق لطير ·

(وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين · لأعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين · فمكث غير بعيد ، فقال : أحطت بما لم تحط به · وجئتك من سبأ بنبأ يقين· انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم · وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون · ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون · الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) (١) ·

ماذا كان رد سليمان عليه السلام ؟

(قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين · اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) (٢) · حمل الهدهد كتاب سليمان وألقاه ثم انتظر فى مكان قريب وسمع حديث الملكة مع أولى الامر فى د [illegible]ها ، ونقله الى سليمان عليه السلام ·

قالت : (يأيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم · انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم · ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ، قالت : يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون · قالوا : نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين · قالت : ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون · وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) (٣) ·

والهدهد هنا لم يقتصر على أن حادث سليمان عليه السلام ، ولكنه

---

(١) سورة النمل الآيات (٢٠ الى ٢٦) ·
(٢) سورة النمل الآيات (٢٧ ، ٢٨)
(٣) سورة النمل الآيات (٢٩ الى ٥-

فهم مناقشة القوم ، ونقلها اليه ، وان حديثه لسليمان يتضمن حمدا وتسبيحا لله وتمجيدا له ، وحملة على هؤلاء القوم الذين أضلهم الشيطان ، وأعماهم عن السبيل القويم ٠

كما روى القرآن الكريم أيضا تتمة لهذه القصة أن الحشرات لها لغات تتفاهم بها ، حتى التي لا يظن انسان أنها تحدث صوتا ٠

(حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ٠ فتبسم ضاحكا من قولها وقال : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين) (١) ٠

ان نملة قد رأت سليمان وجنوده فخاطبت قومها آمرة اياهم أن يدخلوا مساكنهم خشية عليهم أن يطأهم سليمان وجنوده فيقضوا عليهم دون أن يشعروا ٠

سمع سليمان حديثها وفهم معناه ، فتبسم وشكر الله على نعمه عليه وعلى والديه ٠ فالنملة هنا قد تكلمت وأحدثت صوتا سمعه سليمان عليه السلام لانه يسمع بصورة غير الصورة العادية وان لم يسمعه بقية جنوده وسمعه بقية النمل فهرع الى جحوره اتقاء للخطر ٠ فهل حقا للنمل وبقية الحشرات لغات ؟٠

للاجابة عن هذا السؤال يجب علينا أن نسأل أنفسنا : هل تحدث الحشرات أصواتا يمكن الحشرات والانسان سماعها ؟ واذا كانت تحدث أصواتا فهل تحدث أصواتا لها معان يمكن فهمها ؟٠

ان بعض الحشرات تحدث أصواتا يمكن سماعها ، وبعضها يبدو أنه لا يحدث أصواتا أبدا ، وبين هذه الحشرات الاخيرة النمل ، والحشرات التي تحدث أصواتا تحدث طنينا يبدو لنا أنه غير مختلف النبرات ، لا يمكننا أن نتبين منه شيئا ٠ فكيف يمكنها اذن أن تكون لها لغات ؟٠

ان العلم يقول : ان حواس الحشرات تختلف اختلافا بينا عن حواسنا : في بصرها وسمعها وشمها وتذوقها ٠ هل لها آذان ؟ نعم ان لها طبلات اذن بسيطة في أرجلها أو في جوانب جسدها ، اذن فهي تسمع ٠ وماذا تسمع ؟ انها تسمع أصوات التذبذبات الارضية البسيطة

---

(١) سورة النمل الآيات (١٨ ، ١٩) ٠

والتذبذبات الصوتية فى الهواء ، انها يمكنها سماع أصوات لا يمكن الأذن البشرية أن تتبعها ٠

وخذ السمك مثلا فالسمك يسمع أصواتا ، ولكنه يسمع أصواتا من ذبذبة خاصة ٠ انه لا يمكنه الا سماع الاصوات ذات الذبذبة المنخفضة ، وليس فى استطاعته سماع الاصوات العالية ٠ ويقول العلم أيضا : ان بعض الحشرات أصم على الاقل لما تحدثه من أصوات ٠ وماذا يقول العلم عن النمل ؟

يقول ، ان النمل يتخاطب ، ولكنه لا يتخاطب بأصوات يحدثها ، انه يتخاطب معا بتشابك قرون الاستشعار التى تشبه الاسلاك الهوائية للمذياع حينما يخرج من مساكنه ، فقرنا الاستشعار عندالنمل يساعدانه على أن يشم طريقه ويتبادلالرسائل بينهوبين زملائه بحك قرنىاستشعاره بقرون استشعار زملائه الأخر ، حين يتم التقابل خارج العش الذى يسكنه ٠

اذن فالنمل ينقل أفكاره ورغباته الى أفراد قومه،وهل ينقلها بصوت له معنى يرتقى الى درجة اللغة ؟ لم لا ؟

لقد أرانا العلم مثلا لذلك فى سلك المذياع الهوائى الذى يلتقط الذبذبات الصوتية التى لا يمكن الأذن البشريةأبدا تتبعها ، الا اذا تجمعت فى جهاز خاص ذى آلات خاصة ٠ فلماذا لا يكون قرنا الاستشعار هذان لهما خاصية السلك الهوائى فى التقاط ذبذبات صوتية يحدثها النمل ، ولا يسمعها غير النمل لانها لا تدخل فىنطاق ذبذبة ما نسمعه أو مايسمعه غيرنا من الكائنات ؟ ان قرنىالاستشعار هذينمكونان من عديد منالحلقات، ولكل حلقة مهمة خاصة ٠

ان عالم الحشرات والحيوان ملىء بالالغاز ، وان وراء العلم لسبحا طويلا حتى يكتشف أسرار هذا العالم العجيب ٠

نعم ، لقد وصل الانسان فيه الى حقائق تستدعى الاعجاب ، وتؤيد أن به قوى كبيرة نجهلها : فالفراش مثلا يمكنه أن يشم اناثه على بعد أميال ، وسمك القرش يمكنه أن يتبين رائحة حيوان مجروح على بعد منه وهو سابح فى الماء ، وفى استطاعة القطط أن تتذوق الاشياء بسطح جسدها ، على الرغم من أن حاسية الذوق الرئيسية عندها فى شواربها ، ويمكن بعض الحيوانات أن تنبت أجزاء جديدة فى أجسادها حينما تفقد بعض أجزائها ٠

والناظر الى نظام الحياة العجيب لهذه الحشرات ، وخصوصاحشرة كالنمل تتعاون في حياتها تعاونا مثاليا وتتبع في معيشتها نظما دقيقة ـ لا يمكنه أن يشك أن لها لغات تتفاهم بها ، وان كنا نجهلها ، كما نجهل الغالبية العظمى من أسرار الكون الذي يتفتح لنا كل يوم شيئا فشيئا ٠

بقي النبات والجماد ٠ هل يسبحان بحمد الله قالا ؟ لم لا ؟

لقد كان الانســـان فيما مضى يعتقد أن الجماد شيء ميت لا يتحرك ولكن العلم الحديث أثبت خطأ هذا القول ، ، فقد أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الجماد وبقية المخلوقات مكونة من ذرات ، وكل ذرة من هذه الذرات مجموعة شمسية صغيرة تتكون من نواة وفراغ والكترونات في حركة مستمرة من الغرب الى الشرق ، ومشحونة بقوة كهربية هائلة ، فالجماد اذن به حركة دائمة وبه قوة كنا نجهلها جهلا تاما ٠

ان كل شيء في الوجود يتحرك ويتذبذب ، وذبذبته تحرك جزيئات المادة في الثانية بليونا أو ما يزيد ، فما دام الجماد يتحرك وله ذبذبات فلماذا لا يكون له صوت ؟ وهل قصورنا عن سماع صوت له ، دليل على عدم وجود هذا الصوت ؟ اذا قلنا هذا فنحن انما نتجنى على الحقيقة ، فالقصور عن سماع الاصوات ليس دليلا على عدم وجودها وهذه قضية بديهية ، والا أنكر الأعمى ضوء الشمس ، وأنكر الأصم حديث الناس !

ان حواسنا لها نطاق محدود لا يمكنها أن تتعداه ، فآذاننا تسمع فقط الاصوات التي تتردد ذبذباتها بين ١٥ و ٢٠٠٠٠ في الثـانية ولا يمكنها أن تسمع ما دون ذلك أو ما فوق ذلك كما ترى العين فقط الذبذبات التي تتردد بين ٢٠ و ٤٠ في الثانية ٠ (١)

وما دام لها هذا النطاق فهي تؤدي وظائفها في دائرته : فليس في مقدورنا أن نرى أو نسمع أو نحس بكل ما هو محيط بنا ٠

بل وهناك أشياء تبينها العلم ، نشعر بآثارها ونحسها ولكننـــا لا ندرك كنهها مع تقدم العلم هذا الشوط الكبير ٠

وما دام لحواسنا هذا القصور ، فليس في استطاعتها أن تحكم على حقائق الاشياء ، بل قد تكون حواسنا بعض الاحيان من الوسائل الخادعة

---

(١) هناك أشخاص يسمعون ذبذبات دون ذلك وفوق ذلك . وهؤلاء يتمتعون بما نسميه الجلاء السمعي . وهناك اشخاص يرون مالاتراه . وهؤلاء يملكون مانســميه بالجلاء البصري .

لنا ، والمبعدة لنا عن الحقيقة . واذا سلمنا بهذا والكل لا يعارض فيه فمعنى ذلك أن المجهول لا بد أن يكون له خواص لا يمكن حواسنا المحدودة النطاق أن تتبينه ، اذن فلماذا لا يكون هذا الجماد المتحرك دون أن نشعر ، وذو القوة الهائلة ـ مسبحا لله خالقه الذى أبدعه لا حالا فقط ، بل قالا أيضا ؟

ان هذا الكون ملىء بالاسرار التى سيظل العلم يسعى حثيثا وراءها ليكشف غوامضها ومع ذلك فلن يبلغ لها نهاية :

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددا » .

الحياة والموت

(يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الارض بعد موتها ، وكذلك تخرجون) (١) .

اذا سألت أحد كبار العلماء : كيف بدأت الحياة على الارض؟أجابك ان أصلها خلية أخذت تنقسم وتتكاثر وتتطور حتى نشأت منها جميع المخلوقات التى تراها أعين الناس على ظهر البسيطة من نبات وحيوان .

واذا سألته عن ماهية هذه الخلية قال لك : انها شيء صغير جدا لا يمكن العين المجردة أن تراه الا فى أحوال خاصة ، حينما تتضخم كما فى البيضة .

وهـذه الخلية تتركب من مواد حية أطلق عليها العلماء لفظ البروتوبلازم ، وكذلك من مواد غير حية ، وانك لتعجب اذا علمت أن هذه المادة الحية تتركب هى الاخرى من مواد نشوية ومواد دهنية ومواد زلالية وأملاح معدنية وغازات ، وانها مادة هلامية شفيفة معقدة التركيب .

الى هنا يستطيع هذا العالم أن يجيبك فتطمئن الى اجابته ، ولكن حينما تسأله : كيف نشأت هذه الخلايا على الارض ؟ وكيف بث الله فيها الحياة ؟ وقف مكتوف الأيدى معقود اللسان ، ولم يجد غير جواب واحد يرضى به نفسك ألا وهو قول الله جل وعلا :

(قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا) (٢) .

فقد توصل العلم الى معرفة تركيب الخلية ، والى أن تركيبها يختلف اختلافا كبيرا باختلاف المخلوقات . والى أن الاشياء التى تتركب منها المادة الحية فى الخلية لم تكن الا أشياء ميتة ثم دبت فيها الحياة لسبب

---

(١) سورة الروم آية (١٩) .

(٢) سورة الاسراء آية (٨٥) .

لم يتوصل العلم الى اجتلائه مع تقدمه • وعندما أراد العلم أن يعرف سر الحياة أوصد الباب دونه فوقف عاجزا صامتا •

وسيظل هكذا حتى يرث الله الارض ومن عليها •

ولقد خلق الله الحياة والموت : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير • الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) •

خلق الله الموت والحياة وجعل لكل منهما حكمة ، فالله يحيى الميت ويميت الحى لأن ضرورة الحياة تحتم ذلك • فالحياة لا تستقيم الا اذا لازمها الموت • وقد ضرب الله مثلا فى هذه الآية وفى أمثالها الكثيرات فى القرآن الكريم لمنكرى البعث الذين يقولون : « ان هى الا موتتنا الأولى وما نحن بمبعوثين » ليريهم أن الله جل وعلا قادر على احيائهم بعد موتهم كما هو قادر على احياء الميت من الاشياء وبعث الحياة فى الارض الميتة فيروها تهتز وتربو •

والواقع أن هذه العملية وهى عملية احياء الميت من الاشياء واماتة الحى منها ـ انما هى عملية الحياة الدائبة فى كل ناحية من نواحيها : فى الجماد والنبات والحيوان والانسان : فالكائنات الحية يمكن تشبيهها بدوامة مستمرة الحركة تأتى اليها المادة الميتة من خارجها ، فتتحول فى داخلها الى مادة حية ، ثم تموت تلك المادة الحية داخلها بعد استنفاد طاقتها فتخرج منها ليحل غيرها محلها •

هذه الآية الكريمة ، وما أكثر مثيلاتها فى هذا الكتاب العظيم تبين سنة لا تتغير من سنن الحياة نراها أمام أعيننا كل حين فوق سطح الارض وفى باطنها وفى الهواء والماء وأعماق البحار وأجواف الانهار •

احياء الميت

ولعل سائلا يسأل : ما مظاهر احياء الميت واماتة الحى فى النبات والحيوان ؟ وللاجابة عن هذا يجب أن نعلم أن جميع الكائنات الحية من نبات وحيوان تتكون من مجموعات من الخلايا : بعضها من خلية واحدة وبعضها من خلايا قد تصل الى الملايين عدا ، هذه الخلايا الحية تكونت من عناصر ميتة لا حياة فيها : فغذاء النبات يتكون من مواد غير حية : أملاح وماء يمتصها النبات من التربة ، ومن غاز ثانى أكسيد الكربون

الذى تأخذه الاوراق من الهواء • وكل هذه المواد ميتة ، ولكنها لا تظل ميتة اذا دخلت جسم النباتات بل تتحول داخله الى خلايا حية •

ولو أن الانسان استقصى كيف بث الله الحياة في هذه الاشياء لرأى عجبا . فان الماء والاملاح يرتفعان الى الاوراق فى أوعية خشبية تشبه الأنابيب حتى تصل الى الأوراق • وفى هذه الاوراق تجتمع المواد الثلاثة • وهناك طباخ ماهر وكيمائى يعجز أكبر الكيمائيين عن منافسته يحول هذه المواد الى سكر وأكسجين وطاقة حرارية • وليس هذا الطباخ الماهر والكيمائى البارع سوى المادة الخضراء التى أوجدها الله فى الاوراق •

وبعد أن تتحول هذه المواد الى سكر يتحول السكر الى نشا ثم يتحول النشا الى مواد حية بها ينمو النبات ويكبر ، وثم سر خفى وراء هذه العملية لا ندرى عنه شيئا •

هذا هو البناء أو الاحياء فى النبات • أما البناء فى الحيوان فيأتى أيضا عن طريق الغذاء ، فغذاء الانسان مثلا يتركب من مواد نشوية وزلالية ودهنية ومن أملاح وفيتامينات • وهذه جميعها تدخل جسم الانسان لا حياة فيها ، فتتلقفها الغدد المختلفة وتصب عليها خمائرها فتتحول الى مواد بسيطة يمكن الجسم امتصاصها ، وحينما يمتصها الدم يوزعها على مختلف الانسجة والاعضاء،هذه المواد الميتة من نشويات وزلاليات ودهنيات وأملاح تستخدم فى بناء مادة حية جديدة بها يكبر الانسان وينمو ، وتستخدم كذلك فى تعويض ما تفقده المادة الحية فى تفاعلاتها الناشئة من جهود الانسان اليومية التى تميت كثيرا من خلايا الجسم ، فيصبح فى حاجة الى خلايا حية جديدة تحل محلها •

هذه هى عملية البناء التى يقوم بها الغذاء ، وتتلخص فى تحويل المواد التى لا حياة فيها الى مواد حية تحس وتتحرك وتنمو ، الى هنا وصل علم الانسان ، أما كيفية تحولها فلا يعلمه الا خالق الاكوان •

اخراج الميت من الحى :

أما عملية إخراج الميت من الحى فيقوم بها فى النبات والحيوان عملية واحدة ألا وهى عملية التنفس •

فالهواء الذى يدخل جسم الانسان والحيوان يستخدم جزء منه وهو الاكسجين فى أكسدة المادة الحية أى فى احراقها ، والمادة الحية

(البلازما) يتكون معظمها من كربون وايدروجين ، وبذلك ينتج من احتراقها ثاني أكسيد الكربون (باتحاد الاكسجين بالكربون) ، كما ينتج أيضا بخار ماء من اتحاد الاكسجين بالايدروجين ، وهذان يخرجان معا في الزفير ، وبهذه الطريقة يخرج التنفس الخلايا الميتة بعد تحللها كما تخرج بعض الخلايا الميتة من أعضاء الاخراج الاخرى .

وكذلك الحال في النبات : فالنبات يتنفس كما يتنفس الحيوان ، فيدخل الهواء خلال ثغور الاوراق والسيقان والجذور،ويمر في سراديب أو فجوات بين الخلايا ، ويحرق المادة الحية فيحولها الى ثاني أكسيد الكربون وبخار ماء يخرجان من ثغور النباتات كما يخرجان من صدور الحيوانات .

وليست هذه العملية ، عملية الهدم ، خالية من الفائدة ، فقدجعلها الله تبارك وتعالى ضرورية للحيوان والنباتات كضرورة الحياة نفسها . فاحتراق الخلايا ينتج عنه توليد الحرارة اللازمة للحياة ، وينتج عنه أيضا توليد الطاقة التي لولاها ما تمكن الكائن الحي من الحركة والقيام بما تتطلبه الحياة من أعمال . فتبارك ذو الجلال والاكرام .

دليل الشخصية الأول

(بلى قادرين على أن نسوى بنانه ·) (١)

البنان أطراف الأصابع ومنه قول النابغة الذبيانى فى بيتيه المشهورين :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه
فتناولته واتقتنا باليد

بمخضب رخص كأن بنانه
عنم على أغصانه لم يعقد

هذه الآية مر المفسرون عليها مر الكرام ، لم يروا ما فيها من سنا يأخذ بالابصار ولم يسائلوا أنفسهم : لماذا خص الله البنان بالذكر دون سائر أعضاء الانسان ؟

لا بد أن هناك علة وسببا : ان الناظر الى أطراف الاصابع بالعين المجردة لا يرى شيئا يدعو الى الاعجاب · ولكن هناك شيئا وأكثر من شيء ان جهله الانسان وقتئذ فقد فسره له مرور الزمان ، شيئا تضمن قدرة واعجازا لا حد لهما ، وهذا هو السبب الذى منأجله خص اللهالبنان بالذكر · فهذا عدى بن أبى ربيعة يسأل محمدا عن يوم القيامة : هل سيكون هناك بعث ؟ هل سيكون هناك حياة بعد الممات ؟ فأخبره الرسول عن أمر ذلك اليوم ، فما كان من عدى الا أن سأل النبى منكرا : أسيجمع الله العظام بعد أن تفرقت وتفتتت ؟ فرد عليه القرآن قائلا :

(أيحسب الانسان أن لن تجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أننسوى بنانه) ·

ان القرآن ينبىء عديا الذى يظن أن الله لن يقدر على أن يجمععظام الموتى التى تتفتت وتبلى ان الله ليس قادرا على ذلك فحسب ، بل انه قادر على ما هو أعظم من ذلك ، قادر على اعادة تكوين أدق أعضاء الجسم عامة ألا وهى أطراف الأصابع وتسويتها كما كانت أيام حياته الأولى ·

(١) سورة القيامة آية (٤) ٣

ولكن متى عرف الانسان هذا ؟ لم يبدأ عرفانه لتلك الدقة المتناهية الا فى القرن التاسع عشر ، حينما بدأ يتخذ البصمات وسيلة للتعرف على الشخصية . وبدأ الشرطة يتخذون بصمات أطراف الاصابع لتتبع المجرمين والتعرف عليهم ٠

نعم كان الصينيون يستعملون بصمات الابهام فى توقيع الوثائق الهامة قبل الميلاد بزمن طويل ، ولكن لم يتحقق الانسان علميا أهميتها ودقتها المتناهية الا فى القرن التاسع عشر ٠ وبعد ذلك أخذ يستخدمها على نطاق واسع ٠

ان تلك الخطوط الحلمية تظهر فى جلد أصابع الجنين وهـــو فى بطن أمه عندما يكون عمره بين ١٠٠ و ١٢٠ يوما ٠ وتتكامل تمامـــا عند مولده ٠ ولا تتغير أبدا طوال حياته لا فى الشـــكل ولا فى العدد مهما عرض له من أمراض أو اصابات ، وقد تتسع المسافة بين الخطوط فى حالة الاصابة بمرض الفيل أو شلل الأطفال ٠ ولكن نوعها المميز لا يتغير أبدا ويصبح دليلا ثابتا على الشخصية طوال الحياة ، ولذا اعتبرت البصمات دليل الشخصية الاول ، وأمضى سلاح يشهره المجتمع فى وجه الجريمة ، ولا يجدى الحرق ولا الكى ولا التشويه فى ازالتها ، ويكفى المرء أن يعلم أن بين سكان العالم وعددهم يقرب من ٢٥٠٠ مليون نسـمة لا يتشابه اثنان منهم فى بصمات أصابعهم ٠

هذا هو السر الذى من أجله أشار القرآن بالذات الى البنان ، ولم يشر الى أى عضو آخر كالعين أو القلب اذ أن اعادة تكوين البنان بهذه الدقة التى تحير الافهام أدل على القدرة من اعادة تكوين أى عضو آخر من أعضاء الانسان ، تلك الدقة التى لم يفطن اليها مفسرو القرآن القدماء فحاد بعضهم عن معنى الألفاظ لا قصـــدا ، ولكن محاولة للتوفيق بين ما وصل اليه علمهم وبين ما يفسرون ، ولذلك فسرها بعضهم بالأصابع وبعضهم بالسلاميات ٠

وقد حرصت الحكومات على أخذ بصـــمات المواطنين حينما أدركت أهميتها ، فهى لا تستخدم فقط فى التعرف على شخصية المجرمين ، بل انها تستخدم أيضا فى التعرف على شـخصية الذين يشـــوهون فى الحوادث المميتة وللتعرف على الاشخاص الذين يعانون من فقد الذاكرة ٠

اذن فادق عملية فى بعث البشر هى اعادة تسوية البنان، اذ أن اعادة تكوين حلمات هذا البنان لأولئك البشر جميعا مختلفة لا تشـــابه فيها كما كانوا فى حياتهم يحتاج الى قوةودقة لا يمكن أىمخلوق أن يتصورها أو أن يصل اليها ٠

من علم محمدا هـــذا منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرنا ؟ هل علمه بشر ، وكان البشر حين ذاك فى جهلهم غارقين ، أو علمه ساحر والسحرة غاوون كاذبون ؟ أليست اشارة القرآن فى ذلك الوقت الى البنان دليلا على أنه أنزله قادر عليم « يعلم الخبء فى السموات والارض ، ويعلم ما تبدون وما تكتمون » ؟

الكائنات

١ -

(والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله مايشاء ، ان الله على كل شيء قدير) (١) .

هذه الآية الكريمة يمكن تفسيرها على وجهين :

أولهما ـ أن الله تبارك وتعالى خلق الحيوانات التى تمشى على الأرض كلها من الماء .

وهـــذا المعنى صحيح من الوجهة العلمية ، لأنه يتفق مع عملية النشوء والارتقاء من ناحيتين :

أولاهما : أن الكائنات الحية نشأت أول مانشأت فى مياه البحار ، فنشأت الاحيـــاء المائية التى من بينها الاســـماك ، ثم تلا ذلك ظهور الحيوانات البرمائية ، وهى أحياء تستطيع العيش فى الماء والبر مثـــل الضفادع . ثم نشأت بعد ذلك الاحياء البرية . وهى الكائنـــات التى لا تستطيع العيش الا فى البر كالزواحف والطيور والأنعام .

وأما الناحية الاخرى فهى اتفـــاق هذه الآية الكريمة اتفاقا تاما مع نظام تطور الكائنات وتسلسلها فى شجرة الحياة : فأول ما ظهـــر من الحيوانات البرية الزواحف التى تمشى على بطنها ، ثم تطورت تلك الزواحف فنشأت منها الطيور التى تسير على رجلين ، ثم تطورت الطيور الى حيوانات ثديية تسير على أربع .

وكانت التـــوراة التى بدىء فى كتابتها حوالى ٤٤٥ ق . م أول

---

(١) سورة النور آية (٤٥) .

كتاب أشار الى أن البحر أصل الكائنات البرية ، وذلك في الاصحاح الاول في سفر التكوين ٠

وهذا وجه واحد من وجوه اعجاز هذه الآية الكريمة التى اذا قلبناها على وجهها الآخر وجدنا اعجازا لا يقل بهاء عن اعجازها الأول ٠ ويتكشف لنا هذا الاعجاز ، اذا نحن فسرنا كلمة (ماء) هنا بالسائل المنوى قياسا على قوله تبارك وتعالى فى خلق الانسان فى سورة الطارق :

(فلينظر الانسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق) ٠

فان معناهـــا ينحصر فى أن الحيوانات التى تسير على الأرض من زواحف وطيور وأنعام انما تتناسل بوساطة تلقيحها بسائل منوى ٠

وهذه القاعدة صحيحة لا استثناء فيها اذ أن جميع الكائنات التى تمشى على الارض تتكاثر بوساطة التلقيح ، وقد تفادت الآية ذكر ما يطير فى الهواء لسببين : لان هناك بعض الكائنات التى لا نراها وهى الجراثيم(١) التى تسبح فى الهواء لا تتناسل بهذه الطريقة ولأن من بين الكائنات الطائرة حشرة تشذ عن هذه القاعدة وهى نحلة العسل اذ أن الاناث منها تولد من بيض ملقح ، أما الذكور فانها تولد من بيض غير ملقح ٠

فانظر الى هذه الدقة التى تأخذ بالالباب ، وقد عودنا القرآن الكريم أن يكون دقيقا وواضحا وضوحا تاما فى لغته العلمية ، فحينما أراد أن يشمل الحكم الدواب والطيور ذكرهما معا فى قوله تبارك وتعالى :

«وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم» (٢)

وذكر الله تبارك وتعـــالى بجانب كلمة يطير فى هـــذه الآية كلمة بجناحيه لكى يبين أنها تنصب على نوع واحد فقط من الـكائنات الطائرة وهى التى لهـــا جناحان تطير بهما ، ولا تنصب على كل الكائنات التى تسبح فى الهواء ولا نراها ٠. وهـــذا يبين مبلغ الدقة التى امتاز بهـــا القرآن فى خطابه للانسان ، وأنه يفصل الآيات تفصيلا ٠ .كل كلمة انما وضعت لمعنى ولغرض خاص ٠ وهذا مما يعزز قولنا : ان الدواب فى الآية التى نحن بصددها استثنى منها الطيور التى فى استطاعتهـــا

---

(١) كل الجراثيم تتناسل بطريق الانقســام وهى لا تسمى دواب لانها لاتمشي على الارض ٠
(٢) سورة الانعام من الآية الثامنة والثلاثين ٠

الطيران ، وما ذلك الا لأن احدى الحشرات الطائرة وهى النحلة تخالف هذه القاعدة فى ناحية واحدة من نواحى تناسلها ·

ولكى يعلم القارىء مقدار اعجاز هذه الآية فى وجهها « الثانى » لا بد له أن يعرف أن للتكاثر عدة طرق : فبعض الحيوانات تتكاثر بالانقسام ، وهذا النوع بعضه ينقسم قسمين كبعض الحيوانات التى تتكون من خلية واحدة ، وبعضها ينقسم عدة أقسام كجراثيم الملاريا ، وبعض الكائنات تظهر أجزاء زائدة على جسمها ثم تنفصل عنها وتصبح كائنات مستقلة كما يشاهد فى الحيوانات المرجانية ، وبعض الحيوانات يولده الانسان بوساطة القطع كما يفعل مربو الاسفنج الذين اعتادوا أن يقطعوا حيوان الاسفنج الى قطع عدة ، فتنمو كل قطعة منها وتكون حيوانا جديدا · وقد يكون هذا البتر طبيعيا كما يشاهد فى بعض الديدان البحرية ، وفى دودة الارض التى يطلق عليها لفظ (الطعم) · وبعض الكائنات تولد من بيض غير ملقح كالحشرات التى على أشجار الموالح والمن ·

أما النوع الأخير فهو الذى يتوالد بوساطة بيض ملقح وهو ما نحن بصدده من دواب الأرض وما قد تدل عليه الآية الكريمة التى حددت تلك الحيوانات تحديدا يدل على الاحاطة التامة بأحوال الكائنات ، فتبارك من لا تعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات !

الكائنات :

٢ -

(وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون) (١)

تسطع الشمس على البحار ، فيتحول ماؤها الى بخار يرتفع الى طبقات الجو العليا وتتكون منه السحب الثقال التى تسوقها الرياح إلى مختلف البلاد والاقطار ، حيث ينهمر منها المطر فتهتز الارض وتربو وتكسوها الغابات والنباتات والأزهار : (ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد · والنخل باسقات لها طلع نضيد) (٢)

وقد ينسيل ذلك الماء فينحت الصخر ويجتاز السهل والوعر ،

---

(١) سورة الانبياء ــ النصف الاخير من الآية الثلاثين ·

(٢) سورة (ق) الآيتان التاسعة والعاشرة ·

ويلون البحيرات والأنهار يروى ماؤها الأرض التىحرمتها السماء الغيث فيحيلها خضراء ذات جنات وأثمار ، فلولا ذلك الماء ما نما زرع ؛ وما وجد حاصد من انسان ، ولا آكل من طير أو حيوان .

تلك قصة الماء التى يراها كل انسان فى كل مكان وزمان ، جعل الله منه النبات وأحيا به الانسان والحيوان ، أما فى غابر الازمان حينما كان الانسان لا يزال فى ضمير الكون سرا من الاسرار فانه بعد أن خلق الله الأرض وبدأ يهيئها للعمران ، أودعها الحياة أول ما أودعها ماء البحار اذ خلق فى جوفها أبسط الكائنات من نباتات وحيوانات .

وأول الحيوانات التى ظهرت فى الماء تلك التى تتكون من خلية واحدة لاتراها العين المجردة ، ثم تبعت تلك الحيوانات حيوانات ذات خلايا عدة : الحيوانات اللافقرية ، ث الحيوانات الفقرية التى تنتمى اليها الأسماك .

ظلت الحيوانات حتى ذلك الحين فى جوف البحار والمحيطات الى أن ظهرت بعد ذلك الكائنات التى تجمع فى معيشتها بين البر والماء وهى الحيوانات البرمائية التى تنتمى اليها الضفادع .

استمر هذا التطور الذى أخذ الملايين من الأعوام فى مجراه ، حتى نشأت الزواحف التى أخذت الأرض لها مسكنا دون الماء ، ثم تبعها فى سلسلة التطور الطير الذى اتخذ الارض له مسرحا والهواء ، ثم ختمت السلسلة بذوات الأربع ، فامتلأت الأرض بالزواحف والطيور والحيوانات وكلها قذفت باديء ذى بدء من بطن مياه البحار والمحيطات .

وأول من قال بهذه النظرية التوراة التى تكلمت عن نشأة الحيوانات البرية فى الاصحاح الأول من سفر التكوين كما ذكرت آنفا ، ومضمون ما قالت التوراة : هو أن المياه أخرجت زحافات ، ثم خلق الله بعد ذلك الطير ، ثم تبع ذلك ظهور الحيوانات الثديية .

أما القرآن الكريم فلم يقتصر على هذا بل أبان أن الماء هو أصل جميع الكائنات من حيوان ونبات مما يدل على هيمنة القرآن العلمية على ما سبقه من الكتب المقدسة ، وعلى اعجاز هذه الآية التى نزلت فى وقت عالم فيه غارقا فى دياجير الظلمات .

وهذه الآية الكريمة - أستغفر الله - بل هذا الجزء من الآية لايحمل اعجازا فقط ، بل يحمل فى ثناياه اعجازا فوق اعجاز ، فالماء هو أصل الحياة ، أو هو الذى نشأت فى جوفه الكائنات أول ما نشأت .

والماء هو قوام الحياة فهو العنصر الأســـاسى فى تركيب أجســـام الكائنات الحية ، فوزن الماء فى جسم الانسان مثلا حوالى ٧٠٪ من وزنه كما أنه يكون ٩٠ ٪ من وزن الدم وكذلك الحال فى بقية الحيوانات . وتحتوى الأسماك على حوالى ٨٠٪ من وزنها ماء ، كما أن وزن الماء فى النباتات يتردد بين خمسين وتسعين فى المائة .

وهو الذى يقوم فى كل من الحيوان والنبات بأهم مقومات الحياة .

ففى الحيوان يساعد على بلع الطعام ودورته فى القناة الهضمية . ويدخل فى تركيب الافرازات التى تهضم الطعـــام ، كما يذيب المواد المهضومة حتى يمكن امتصاصها ، ويذيب المواد الضارة أو الزائدة على الحاجة ويحملها الى خارج الجسم على هيئة بول وعرق كما يسهل خروج فضلات الغذاء .

أما فى النباتات ففوق أنه يدخل فى تركيبه فانه يذيب الأملاح التى فى التربة ، ويساعد الجذور على امتصاصها ، كما أنه ينقل هذه الاملاح الذائبة الى الســـاق والأوراق ، ويذيب المواد الغذائية التى تتكون فى الأوراق وينقلها الى جميع أجزاء النبات .

فانظر الى هذه المعانى الكثيرة التى جمعها الله تبارك تعالى فى نصف آية من كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

عدم فناء المادة

١ ـ (ائذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد . قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) سورة (ق) .

٢ ـ (منها خلقناكم وفيهـــا نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى) سورة (طه) .

ان الشجرة العالية والزهرة اليانعة والثمرة الناضــجة ، والزرع بمختلف أنواعه وأحجامه وألوانه يخاله الرائى شيئا جديدا وما هـــو بالجديد ، اذ ما هو الا حبة صغيرة نمت فصارت شجرة كبيرة أو زرعـا اخضر أو نبتا أزهر ، لم يضف اليها شيء جديد عما يحيط بها من تربة وأملاح وماء وهواء .

وتلك الجثة التي واراها التراب فصارت ترابا انما رجعت الى أصلها فلم تفن مادتها ، بل تحللت الى تراب وأملاح فى الأرض بقيت ، وغازات الى الجو ارتفعت ، فـلا المادة الاولى استحدثت ولا المــادة الاخرى من الوجود فنيت . كمثل الشمعة المضيئة تحترق فيظن الرائى أنها باحتراقها تفنى ، وليس الأمر كذلك ، اذ هى تتحول الى مواد غازية وغير غازية لو جمعها الانسان ووزنها لم يجد وزنها ـ وهى كذلك ـ أنقص من وزنها السابق . بل لعله يجد فيه زيادة نتيجة لاتحاد بعض العناصر بها حين تحترق .

فالمادة اذن لا تفنى ولا تستحدث : هذا هو قانون الله وسنته ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا .

ولقد ظن معارضو محمد صــلوات الله عليه أن موتهم فنـاء لهم ، وقالوا : كيف تحيا العظام وهى رميم ؟ ظنوا ان اعادتهم للحياة بعـــد أن صــاروا ترابا شيء عجيب وأمر مســتحيل . فأفهمهم محمد أنهم سيرجعون بلا شك ، وأنهم سيبعثون من تلك الارض التى نشئوا منها .

(منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى)

وهو قول يحمل فى طياته ذلك المبدأ العلمى بتمامه . مبدأ المادة التى لا تفنى ولا تستحدث ، فقد تكونوا من الأرض وما يحيط بهـــا ، نشئوا فى أول خلقهم طينا ، ثم تناسلوا وتغذوا بما تخرجه الأرض من نبات وبما يتغذى من الأرض من حيوان . ثم انهم بعد ذلك يموتون ثم يخرجون لا ينقصون . فهم تشئوا من الأرض وتكونوا منها ، فلم تنشأ بنشأتهم مادةجديدة وهذا مصداق لقول العلم : «انالمادة لا تستحدث» . ثم هم بعد ذلك سيعودون اليهـــا كما نشئوا منها ويتحولون الى مادة جديدة وهذا مصداق لقولنا ان المادة لا تفنى ، ثم بعد ذلك تدور الدورة وتخرج تلك المادة كما نشأت أول الأمر ، فى شكل تدب فيه الحياة .

وقد زاد الله تبارك وتعالى هذا المبدأ ايضاحا بقوله :

(قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) .

وما هنا اسم موصول بمعنى الذى ، وعلى ذلك يكون تفسير الآية أن الله تبارك وتعالى يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم التى يبقى جزء منها فى الأرض وجزء آخر يتحلل ويتصاعد فى الجو على شكل غازات يضمها الغلاف الجوى يعلم الله مستقرها ومآلها ، كمـــا يحيط سبحانه بعلم كل شىء ؟

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين) (١) .

---

(١) سورة الانعام الآية (٥٩) .

غزو الفضاء

سبحانك يا من جلت قدرته . ان العلم يوما بعد يوم يزيدنا بك ايمانا وتعظيما ، من كان يظن أن الانسان سيحاول غزو السماء ؟ من كان يدور بخلده أنه سيعمل جاهدا للوصول الى القمر والكواكب ؟ من كان يظن أنه سيرسل أقمارا صناعية تتخذ لهـا مدارات حول الارض وكواكب صناعية تنطلق نحو الشمس ؟

لو قيل ذلك فيما مضى لظن الناس أنه من خيال الشعراء والحالمين ! ولكن كتابا كريما قال هذا قبل اليوم بما يقرب من أربعة عشر قرنا : قال : ان الانسان سيحاول ذلك فعلا ، وأخبرنا بما سوف يصـادفه من عقبات تحصر مجهوداته فى نطاق لن يتعداه . وان ايراده لهذا الخبر في ذلك الوقت البعيد ليعتبر احدى المعجزات ، اذ قيل فى وقت كانت الانسانية فيه غارقة فى دياجير من الجهل والظلمات ، فى وقت كانت جل مطايا الانسان فيه الابل والخيل والبغال والحمير ، فى وقت لم يدر بخلد أوسع الناس خيالا انه سيأتى يوم ينهب الانسان فيه الارض نهبا بقاطراته وسياراته ، ويمخر البحار بسفنه الجبارة وغواصاته ، بل يطير فى الجو ويغزو الفضاء بصواريخه وطائراته . أخبر هذا الكتاب الكريم الانسـانية بما سيحاوله البشر : سيحاول أن ينفذ من اقطار السموات والأرض :

(يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطـان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) (١)

---

(١) سورة الرحمن (٣٣ ـ ٣٥) .

السلطان فى اللغة معناه الحجة والدليل والبرهان ، وقد جاء ذكر ذلك فى مواضع عدة ، كقوله تبارك وتعالى :

(قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات ومافى الارض ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟) (١)
« سلطان : دليل »

(وتفقد الطير فقال : ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين · لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين) ·

أى بدليل واضح ·

ولذلك فيكون معنى الآية أن الجن والانس سيحاولون أن يتعدوا آفاقهم الى عوالم أخرى ، وهم حين يفعلون ذلك لن يكون النجاح حليف مسعاهم ولن يستطيعوا الوصول الى بغيتهم من اجتلاء أسرار هذه العوالم الا عن طريق العلم فحسب ، وهذا ما حدث فعلا وحققته الأيام بعد ما تزيد على ألف وثلثمـــائة من الاعوام ، لقد نفذ علم الانســـان فعلا الى أقطار السموات : عرف الكواكب والنجوم ودرس أحوالها وسهـــجل حركاتها وتابعها فى أفلاكها بل وقدر أوزانها وألم بالمواد التى تتركب منها ، كما عرف باطن الارض واستخرج المعادن منه ، ووصل الى أعماق البحار ، وحاكى الأسماك ، فاخترع الغواصات يســـير بها تحت الماء ، كما مخر ببوارجه وسفنه العباب واتخذ سبيله فى البحر سربا ·

وقد أتى بمخترعاته عجبا فهـــا هو ذا التلسكوب يصـــل الى رؤية النجوم على بعد الملايين من السنين الضوئية ، كما وصل بطرقه العلمية الى دراسة كثير من الظواهر الكونية ، وها هى ذى صــــواريخه تجوب الفضاء تكشف له من أسرار الكون كل يوم جديدا ·

ولقد أمكنه بالمجهر أن يكشف الكائنات الجرثومية وأصـــبح فى طوقه بوساطة المجهر الكهربى أن يكبر الاجسام الى ما يقرب من ثلاثين ألف ضعف ، وبذلك أصبح فى استطاعته أن يميز الكائنات التى لا يزيد قطرها على جزء واحد من مائة ألف جزء من البوصة · وبهـــذا أمكن الانسان أن يرى ما لا يرى : من جراثيم تسبح فى الهواء وتجـــرى فى

---

(١) سورة يونس آية (٦٧) .

السوائل والدماء . وسد ما وراء آفاقه ، ونجوما تصل اشعاعاتها اليه لا فى شهور وأيام ولكن فى الملايين من الأعوام .

وها هو ذا الرادار يعرف به الانسان ما يسبح فى الجو على بعد مئات الاميال ، ويريد الانسان أن يتصل بوساطته بالقمر والكواكب ، وهاهو ذا العلم يكشف كل يوم لنا جديدا : من نشاط ذرى الى اشعاع كونى الى دفع ذاتى الى نقل أثيرى .

ان العلم ستظل تزداد قوته حتى يدرس السموات دراسة وافية . وحتى يعلم الانسان كلما ازداد علمه مقدار العظمة التى تتجلى فيما خلق رب الارض والسموات من أفلاك تتحدث بعظمته وتنطق بعنمه وحكمه وتظهر جبروته وقدرته .

ولكن هل اكتفى الانسان بآلاته وعدساته ومناطيده وصواريخه واختراعاته ؟

لم يقنع بذلك . انه يريد أن يخترق الحجب . انه يريد أن يصل بنفسه الى القمر والكواكب . بل ويتعداها الى عوالم الكون الاخرى .

عجبا ان مقدمات هذه الآيات قد لمسناها اليوم . لقد أرسل الانسان صواريخه بأقماره الصناعية التى اتخذت حول الارض مدارا . وأرسل صواريخا هبطت على القمر وصواريخ تعدته . اليست هذه عظمة تهز المشاعر؟ لقد قال المبطلون : ان هذا القرآن من كلام بشر . وهل كان فى قدرة بشر مهما أوتى من حكمة لم يعرف فى حياته مطية غير ناقة أن يخبرنا بهذه الدقة البالغة فى القرن السابع بما سيحاوله البشر فعلا فى القرن العشرين .

لقد بدأ الانسان فعلا محاولاته ليصل بنفسه الى ما وراء آفاقه فماذا حدث حتى الآن ؟ وماذا أخبرنا به القرآن ؟ ان الخبر والحدث يتفقان : لقد أخبرنا القرآن الكريم مخاطبا الجن والانس : (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) وقال على لسان الجن الذين حاولوا ذلك قبلا : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا) والشواظ فى اللغة اللهب الذى لا دخان فيه . والنحاس هو ما سقط من شرار المعادن الحامية المطروقة .

ان الانسان الآن فى مرحلة اختبار . انه نجح فى افلاته من الجاذبية

الارضية وأرسل صواريخه فى الفضاء تدور حول الارض وتصيب القمر وتتعداه لتدور كواكب صناعية حول الشمس ، وترسل له الآلات التى تحتويها هذه الصواريخ معلومات عجز قبلا عن ادراكها . ماذا وجد ؟ وجد عجبا ! وجد ما نبأنا به القرآن الكريم : وجد الكون مشحونا بقوى هائلة كان يجهلها ، قوى تقف حائلة دون غزوه لعوالم أخرى (شواظ من نار ونحاس ، أحزمة اشعاعية تسمى « أحزمة فان ألن » تعتبر عظيمة الخطر على رحلاته فى الفضاء ، وهى طبقة من الاشعة الكونية الخطرة والالكترونات المشحونة بالكهربا التى تنطلق فى فضـــاء الكون بسرعة جبارة وتخترق كل ما يصادفها . وجد « حرسا شديدا وشهبا » ملايين الملايين من الشهب المنطلقة كأنها الرصاص والقنابل لابد من الوقاية منها والا مزقت جسم الصاروخ وجسم راكب الصاروخ

انه اكتشف أن النجوم والكواكب لأخرى تسقط على الارض ملايين الاطنان من الذرات على شكل شهب . والقرآن الكريم أول كتاب أخبرنا بمصدر هذه الشهب بقوله تبارك وتعالى : (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما لنشياطين) والمقصود بالمصابيح هنا النجوم والكواكب. أخبرنا القرآن فى القرن السابع بمصدرها الصحيح على حين ظل العـلم يتخبط فى بيدائه بين نظرية وأخرى ينقض بعضها بعضا حتى أرجعته صواريخه الى هدى ما قاله الكتاب الكريم .

هذا ما صادفه العلم بجانب مشاكل الفضاء الاخرى وهى «انعدام» الجاذبية والوزن وفقد القوة والارادة . فعندما تبـدأ رحلتك فى الفضاء فان وزن جسمك يتضاعف أربع مرات لمدة ثمانى دقائق تقريبا تحس فيها كأنك جبـل عاجز عن الحركة ، وفجأة يهبط وزن جسمك الى الصفر . فلا تعرف رأسك من قدميك تصير كريشة فى مهب الريح . وهذا غير خفة الضغط ثم « انعدامه » مما يسبب انفجارا فى الجســم نتيجة لاحتفاظ الجسم بضغطه الداخلى و « انعدام » الضغط الخـارجى . وهذا يحتم وجود آلات داخل السفينة الهوائية لموازنة الضغط .

هذا عدا السرعة الهائلة لسفينة الفضاء التى لا يمكن الانســـان تحملها الا باتخـاذ احتيـاطات لذلك ، فللافلات من جاذبيـة الارض لا بد أن ينطلق الصاروخ بسرعة ٢٥٠٠٠ ميل فى الساعة .

هذه بعض صعاب الطريق التى ذلل العلم بعضها وهو يحاول جاهدا تذليل بقية الصعاب التى صادفها · انه حتى الآن اقتصر على ارسال صواريخه ، واذا سافر انسان فلابد أن يستقل مركبات مقفلة محكمة بها جميع الاحتياطات التى تنجيه من مخاطر الطريق ، والا فماذا ؟ انه ان تعرض لبعض مخاطر الطريق باد وهلك · واذا أراد أن يخرج من الصاروخ باد وهلك ، واذا وصل فرضا داخل صاروخه الى القمر فهل يستطيع التغلب على عديد الصعاب التى ستواجهه حتما وفى مقدمتها الارتطام بسطح القمر فالصاروخ الخالى لا يأبه أحد بأمره كثيرا عندما يتحطم ؟ واذا فرض وأمكنه التفادى من هذا فهل يتجاسر ويخرج من صاروخه الى أرض القمر ؟ تعال معى لنرى ما هناك وما سيحدث :

الحرارة على القمر نهارا ترتفع الى أكثر من نقطة غليان الماء بكثير(١) ، كما تنخفض خلال الليل الى حدود ٢٤٣ درجة فهرنهيت تحت الصفر ·

يوم القمر سبعة وعشرون يوما وكسور اليوم . نصفها ليل والنصف الآخر نهار ·

الجاذبية على القمر سدس الجاذبية على الارض ·

ليس هناك ماء ولا غذاء ولا هواء ·

ناهيك بما ينهمر على سطح القمر يوميا من ملايين الشهب والنيازك التى لا تحترق كالحال عندنا قبل وصولها للارض ، وما قد يكون عليه من اشعاعات قاتلة ·

ولقد وصل الإنسان إلى القمر فعلاً، وصل ليبقى هناك فحسب بضع ساعات تكلفة عشرات الملايين من الجنيهات ، ولكن المشكلة لا تقتصر على هذا بل تتعداه إلى استطاعته العيش باستمرار هناك. انه لكي يستطيع ذلك لا بد من هواء وماء وغذاء ، ولا بد ان يوفر على القمر ظروفاً تماثل ظروفه على الأرض وانى له ذلك ؟ ان عليه اتقاء امطار الشهب التي تتساقط دون انقطاع واتقاء

---

(١) قد تبلغ الحرارة نهارا على القمر ٢٥٠ درجة مئوية وليلا ١٥٠ درجة مئوية تحت الصفر ·

حرارة وبرودة قاتلتين واشعاعـات اشد خطراً وجاذبية هي سدس ما يعهده على الأرض .

هذا بالنسبة للفضاء بين الارض والقمر أما بالنسبة للفضاء الكونى فدعنا ننقل اليك رأى العـــالم الفلكى البريطانى (آثر كلارك) العضو فى الجمعية الملكية للفلك فى بريطانيا فى كتابه (الفضاء يتحدى سفينة الفضاء) :

« ان الانسان الذى استطاع أن يقضى على فكرة وجود الفضـــاء بالنسبة لكوكب الارض يتوهم أنه سيقضى على فـكرة الفضاء بالنسبة للكون ، ويغزوه أيضا ، ولكن هيهات !

ان كوكب الارض المترامى ليس الا قطـرة فى محيط هائل هو الكون ، وان عد حبات الرمال فى صحارى كوكب الارض كله لأهون كثيرا من الوقوف على ما فى هذا الكون اللانهائى ، والشمس التى نعيش نحن بنى البشر على واحد من أصغر كواكبها ـ فى الكون ـ منها ١٠٠ ألف مليون شمس ، وكل من هذه الشموس المضيئة لابد أن تجمع من حولها كواكب أخرى ذات أقمار تضىء ساعة وتظلم أخرى • وأقرب هذه الشموس والنجوم المضيئة الى الارض خمس سنوات ضوئية ، أى أن المسافة التى بيننا وبينها تعادل المسافة التى تقطعها أشعة الضوء فى خمس سنوات ! فاذا فرض أن العلوم الهندسية والتكنولوجية قد تقدمت الى أقصى حد خيالى ممكن وأضحى فى استطاعتنا بناء سفينة للفضـاء تمضى بسرعة الضوء (١) أو ما يقرب منها ، فان أية رحلة عبر الفضاء الخارجى لابد أن تستغرق عشر سنوات على الاقل : خمس للذهاب وخمس للاياب ، وفى خلال سنوات عشر يغير الله حالا بعد حال •

وينهى العالم كتابه بقوله : نستطيع أن نضع خريطة للفضاء وأن نكتشف بقيـة الشموس التى ما زال عدد كبير منهـا بعيدا عن متنـاول تلسكوباتنا ، ونستطيع أن نتعرف على الكثير من المجهـــول لدينا فيما يختص بالاشعة الكونية والعواصف والبقع الشمسية وغير ذلك من مظاهر الطبيعة فى الكون ، أما أن نغزو الفضاء فهذا هو المستحيل » •

حتى عندما تتوصل الاجيال القادمة الى أبعد حدود العلم ، وتنتشر فى الكون الضخم تبحث عن حقيقته فان هذه الاجيال لن يكون موقفها أبعد من موقف مستعمرات النمل فوق كوكب الارض ، هذه المستعمرات التائهة على كثرتها لا تعرف كل عن الاخرى شيئا ، هكذا سيكون حال الناس الذين سيخرجون تائهين فى عالم الفضاء ، ولهذا فانى أدعو بنى

---

(١) سرعة الضوء ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية .

البشر الى التخلص من نوبة الغرور التى تملكتهم ، فأوحت لهم بأن الانسان قادر على غزو الفضاء والتعرف على أرجاء الكون ٠

هذا من الناحية الفلكية ، أما من ناحية الآلة الانسانية فمشكلتها أعصى أن تحل ، فلكى يمكن الانسان أن يعيش خارج كوكبه لا بد من ايجاد وسيلة يمكن بها تعديل جسمه بما يحوى من أجهزة داخلية وعصبية والتحكم فيها علميا ليلائم الحياة فى الفضاء الذى تختلف كل ظروفه عن ظروف الارض ، وهذه الآلة الانسانية قد أثبت العلم أنه لا يمكن التحكم فيهـــا من قريب أو بعيد ، ولا يمكن احداث أى تغيير أو تبديل فيمـا أوتيت عليه ٠

الذبذبة الصوتية

جلس الفتى ذات يوم يقرأ أخبار العلم · وللعلم فى كل يوم وفى كل ساعة خبر جديد ، التفت الى وقال : يا للهول حتى الصوت يتخذه البشر الآثم سلاحا من أسلحة حرب الابادة الشاملة ! انه يفكر الآن فى سلاح لا يجد له العلم سلاحا مضادا · انه الآن فى سبيل ايجاد سلاح يفجر القذائف الصاروخية فى الجو قبل أن تصل أهدافها ، وقد نجح الى حد ما ، ويسعى جاهدا لينال النجاح الكامل · اذن فكيف يشبع نزعته الجامحة الى الشر · فكر فى الصوت ليهلك الحرث والنسل ·

وما هنا لك يا فتى ؟ ·

اعتدل الفتى فى جلســـته وقال : هناك أمر عجب ·· اليك هذا الخبر ·

ناولنى الصحيفة فاذا بها ·

« لقد اتســع نطاق العلم واكتشـف كثيرا من أسرار الكـون من اشعاعات قاتله وذبذبات صوتيه من الجائز أن تحدث أضرارا أكثر من القنابل النووية : عرف العلماء قوتها واستطاعوا بمعونتها حمل أثقال لا تخطر على بال ، بالذبذبة الصوتية تستعمل فى مناطق روسيا لتفريغ شحنات السيارات وعربات السكك الحديدية ، وقد يكون سلاح ذبذبة الصوت أحد أسلحة الحرب القادمة ، وأمامه لا تملك أقوى الجيوش أى سلاح مضاد ، والنتيجة الحتمية للتعرض له زوال الجيوش » ·

وهل فى ذلك من جديد ؟

نعم ، لقد سمعنا عن الصواريخ والاقمار الصناعية والعقول الآلية التى تدير الآلات وتجرى أصعب العمليات الرياضية فى ثوان معدودات، وسمعنا عن كثير غير ذلك ، ولكننا لم نسمع عن هذا أو يخطر لنا على بال ·

ليس هذا بجديد أيها الفتى ، ان الصوت لا يستخدمه العلم فى

ذلك فحسب ، بل يستخدمه كذلك فى أغراض صناعية وكيماوية أخرى كثيرة وفى تشخيص بعض الامـراض وعلاجها ، ولعلك قرأت ما نشر حديثا من أن موجات الصوت العالية عن نطاق سمعنا قد استخدمت فى علاج انفصام الشخصية(١) بنجاح كبير ، ذلك المرض العقلى الذى كان يحتاج علاجه الى جراحة غير مضمونة العواقب .

عجبـــا !

ولم هذا العجب ؟ ان الصوت لم يستخدم في ذلك فحسب ، فقد استخدم قبلا فى أزمنة ساحقة فى مناسبات عدة فى اهلاك مدن وأقوام أجمع .

انك تسير بى من غموض الى غموض !

ولم هذا الاتهام القاسى ! ألم تقرأ قوله تبارك وتعالى فى سورة يس (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ، ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون) (٢) وقوله جل وعلا فى سورة « المؤمنون » (فأخذتهم الصـــيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقـــوم الظالمين) (٣) .

أرسل الله تبارك وتعالى للمدينة الاولى التى كانت تعبد الاصنام من دون الله اثنين ليدعواها لعبادة الله الواحد القهار ، فتمسك الناس بباطلهم فعززهما الله برسول ثالث فتمادوا فى غيهم .

(قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزلنا الرحمن من شىء ان أنتم الا تكذبون . قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون وماعلينا الا البلاغ المبين، قالوا انا تطـيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنـكم وليمسنكم منـــا عذاب أليم) .

لقد حبس المطر عن القوم فظنوا أن هذا بسبب الرسل ، فأفهموهم أن ذلك بسبب أعمالهم وبما كسبت أيديهم .

---

(١) موجات الصوت العالية عن نطاق سمعنا استعملها الدكتور بيترلاند ستروم الزوج السابق للنجمة السينمائية انجريد برجمان في علاج (انفصام الشخصية) واثبت انها تغنى عن الجراحة الخطرة التى يتم فيها استئصال الفص الامامي من المخ بل وتاتى بنتائج افضل .

(٢) هما آيتا (٢٨ ، ٢٩) .

(٣) المؤمنون آية (٤١) .

(قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون) ·

سمع متعبد كان في غار وكان يخفى عبادته بخبر الرسل فأسرع اليهم ، وآمن برسالتهم ، وحث قومه على الايمان مفهما اياهم أن هؤلاء الرسل ليسوا بمرتزقة يتاجرون بعلمهم ، انهم لم يحضروا اليهم ليتقاضوا أجرا فأجرهم عند الله ·

(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال : يا قوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون · ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون · أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون · انى اذن لفى ضلال مبين · انى آمنت بربكم فاسمعون) ·

فما كان جزاؤه ؟ جزاء كل مناضل فى الحق ... ظالمين القتل وما كان جزاؤه من الله ؟ جزاء كل شهيد فى سبيل الحق الجنة (قيل ادخل الجنة قال : يا ليت قومى يعلمون · بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) ·

لقد قتل القوم وليا من أولياء الله فليأذنوا بحرب من الله · ماذا فعل الله بهم ؟ أرسلت عليهم صيحة أبادت كل حى فى المدينة ·

(ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون) ·

أما الآية الأخرى فتشير الى قوم صالح عليه السلام : لقد بعثه الله الى قومه يدعوهم الى عبادة الله والايمان بالبعث والنشور فسفهوا قوله واستهزءوا برسالته . اذ كيف يبعثهم الله بعد موتهم وفنائهم ؟

وجد صالح أن لا أمل يرجى فيهم ، ولما بلغ درجة اليأس منهم دعا مرسله أن ينصره · استجاب الله تبارك وتعالى لدعاء رسوله فأخذتهم الصيحة بالحق فصاروا من الهالكين :

(قال عما قليل ليصبحن نادمين ، فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين) ·

واعجبا لقدرة الله !

لا تعجب فهو على كل شىء قدير يقول للشىء كن فيكون · · ن تعجب فاعجب من أن يرد ذكر هذه القوة التى تحدث عنها العلم كأحدث ... فى كتاب الله الكريم . ويمر الناس عليها مر الكرام ...

وهذا الكتاب الكريم لم يحدثنا عن قوة الصوت فى هذين الموضعين فحسب ، بل حدثنا عنها فى مواضع عدة · حدثنا بأنها ستكون الوسيلة لانهاء الحياة على الارض ، حدثنا بأنها ستكون بصيحة واحدة بقوله تبارك وتعالى فى سورة يس :

(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ·ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون · فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون) ·

بينما الناس فى أمور معاشهم فى أخذ ورد وجذب وشد يتجادلون ويتناقشون ويتحاكمون ـ تأخذهم الصيحة فجأة فاذا هم خامدون ·

سيموتون ثم بعـــد ذلك يبعثـــون · بماذا سيبعثون ؟ بالصوت سيبعثون ·

ان الصوت يستخدمه العلم فى الصناعة والطب · ويحدثنا القرآن الكريم أن هذه الذبذبات الصوتية ستستخدم فى احياء عظامنا البالية ولحومنا التى تحللت فى التراب ·

(واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب · يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج · انا نحن نحيي ونميت والينا المصير · يوم تشقق الارض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير) (١)

(ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد · لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) (٢) ·

(ونفخ فى الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون · قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون · ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون) (٣) ·

اذن فبعثنا سيكون بصيحة أخـرى ، صيحة بذبذبة غير ذبذبة الصيحة الاولى · فهل تعجب اذن مما يقوله العلم ؟ وقد سبق القرآن العلم بما يقرب من أربعة عشر قرنا ، وسيظل له السبق دائما ما دامت هناك عقول تفكر وأنفاس تتردد · وسيظل جديد العلم قديما بالنسبة لما ورد بين دفتى هذا الكتاب العظيم ·

---

(١) سورة ق الآيات (٤١ ـ ٤٤) .
(٢) سورة ق الآيات (٢٠ ـ ٢٢) .
(٣) يس الآيات (٥١ ـ ٥٣) .

النقل البعيد

وارنى صديق احدى ليالى الصيف ، الحر جاثم فوق الانفاس لا يكاد الانسان يطيق رداءه ، والجو خانق ، جلسنا معا نتحدث والحديث ذو شجون هبت نسمة فتنفسنا الصعداء . وتطرق الحديث الى الدين والعلم فقلت له : هل لديك من جديد ؟ فما كان منه الا أن قال : لدى خديد وجديد . لقد أثرت فى جلستك السابقة مسألة النقل البعيد . وقلت إن أول كتاب ذكر النقل البعيد هو القرآن الكريم ، لقد كان الكرى يلعب عندئذ بمعاقد الأجفان فهل لك أن تعيد ؟ .

قلت مرحى مرحى ! والله ان التكرار ـ وان كان يمل فى كل شيء ـ يزداد فى القرآن وما يتعلق بالقرآن حلاوة ، أنصت يا فتى الى هذه المعجزة الكبرى من معجزات هذا الكتاب العظيم :

انك اليوم على دراية تامة بقصة الصواريخ العابرة للقارات والمحيطات ومركبات الفضاء التى تدور حول الأرض فى ساعة ودقائق معدودات . ولكنك لا تعلم ان القرن العشرين لم يكن أول شاهد لهذه المعجزات . ان هذا حدث أول ما حدث وبصورة أروع بكثير كما أخبرنا القرآن الكريم فى عهد سليمان بن داود عليهما السلام .

هنا قال صاحبى : وكيف كان ذلك ؟

اليك القصة ، وانها لقصة ممتعة . أرسل سليمان الى بلقيس ملكة سبأ باليمن يعرض عليها الاسلام ، فارسلت له هدية ظنا منها انه يريد مالا ، فما كان منه الا أن رفضها وتوعدها هي وقومها . فما كان منها أن اجمعت الذهاب اليه في رجال دولتها . فلما علم سليمان باعتزام زيارته فى عاصمة ملكه شيد لها صرحا عظيما ، ومرد أرضه بالزجاج و... شيء لم يكن لأهل اليمن عهد بمثله .

ولما قربت من ديار سليمان أراد أن يظهر لها من دلائل عظمته وسعة

الله تعالى عليه ما يبهرها ، اراد أن يفاجئها باحضار عرشها الجميل من بلاد اليمن ليكون جلوسها عليه فى ذلك الصرح العظيم .

وهنا يقول القرآن الكريم على لسان سليمان لجنوده فى سورة النمل : (قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم) .

عرض عفريت من الجن أن يأتى بعرش بلقيس من اليمن قبل أن يقوم سليمان عليه السلام من مقامه . ولكن كان هناك من هو أسرع منه . ذلك الذى عنده علم من الكتاب ، اذ أتى اليه بالعرش فى لمح البصر . (قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين)

وقد وردت هذه القصة فى كتاب سماوى واحد ألا وهو القرآن الكريم . أما التوراة فانها لم تذكر قصة بلقيس ملكة سبأ بهذا التفصيل . ولم تشر التوراة الى معجزات سليمان . اذ أنها تقف من سليمان موقفا عدائيا متهمة اياه أنه حاد عن الايمان باستخدامه الجن . واعتبر اليهود خوارق المعجزات التى كان يأتى بها سليمان من قبيل السحر . ولكن القرآن نفى هذه التهمة عنه نفيا تاما بقوله تبارك وتعالى فى سورة البقرة . (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر) (١) .

واستخدام سليمان للجن كان بأمر من الله ولم يكن بقصد السحر ، بل كان لأمور نافعة (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور) (٢) . ولذلك فان سليمان لم يستخدم الجن لمنكر أو لشر . ولكنه استخدمها لنفع فكيف اذن يتهمونه بالكفر ؟ ان الذين حادوا عن الايمان حقا انما هم الشياطين الذين أخذوا يعلمون الناس السحر

---

(١) ص آية (١٠٢) .
(٢) سبأ آية (١٣) .

ويعلمونهم كيف يفرقون بين المرء وزوجـه ويعلمونهم ما يضر الناس ويؤذيهم . هؤلاء هم الكافرون حقا .

وقد تعسف بعض المفسرين فأولوا هذه القصة تأويلات تختلف مع ظاهر الآيات . ولو أنهم عاشوا فى القرن العشرين لرأوا أن الانسـان بحكمته المحدودة وعلمه القليل لظواهر الكون قد أمكنه أن يجعل الاجسام تندفع فى الفضاء الى مسافات بعيدة ، ولو أنهم كانوا يعلمون كما نعلم الآن أنه سيكون فى طوق الانسان أن يرسل الصواريخ عبر المحيطات والقارات محملة بالمتفجرات ، وقد تحمل غير ذلك من الحاجات ، وأن يرسل مركبات الفضاء فتتخذ لها مدارات حول الارض ــ لو كانوا يعلمون ذلك لأيقنوا أن ما جاء فى هذه الآيات انما هو حق لا ريبة فيه .

وتبلغ المسافة بين بيت المقدس واليمن حوالى ١٢٠٠ ميل ، وهنا تتجلى عظمة خالق الأكوان : فقد أتى عرش بلقيس من اليمن فى ثانية ، أو أقل (قبل أن يرتد اليك طرفك) فلو قدر لهذا العرش أن يقطع محيط الكرة الارضية لقطعها فى عشرين ثانية أو دون ذلك بكثير ، أو لعله كان قطعها قبل أن يرتد طرف سليمان اليه ، اذ من يدرى ؟

وانه لمما يدعو الى الدهشة أن يرى الانسان فى نفسه هذه القدرة ، ثم يعجب لمعجزة من صنع الله على يد مخلوق آتاه الله قوة وعلما ، وهو الخالق العليم بخفايا الكون وأسراره ؟ .

لقـد ظلوا يعجبون حتى أتى العـلم فأراهم صـدق ما كانوا منـه يتعجبون .

وما ينطق عن الهوى

١ ـ أحاديث رسول الله

٢ ـ ثروة الاحاديث العلمية

٣ ـ التلفزة

٤ ـ تاريخ المستقبل

٥ ـ النقل الاثيرى (مدرسة رسول الله
صلى الله عليه وسلم)

٦ ـ الوطن القومى

١ ــ أحاديث رسول الله :

١ ــ « وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى » (سورة النجم)

٢ ــ « أوتيت القرآن ومثله معه » (حديث شريف رواه أبو ذر)

للمسلمين كتابان : كتاب سماوى وهو القرآن الكريم ، وكتاب نبوى وهو أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعماله المبينات لسنته .

ورسالته السنة من قول وعمل انما هى شرح آى الذكر الحكيم وتفسيرها وتفصيل الشريعة الاسلامية للناس تفصيلا وافيا .

ولقد اهتم المسلمون بجمع أحاديث الرسول وتدوين أعماله فأخرجوا للناس أسفارا جامعة اشتهر منها الصحيحان البخارى ومسلم اللذان امتازا بتقصى أسانيد الأحاديث تقصيا جعل الناس يطمئنون لما دون فيهما ؛ وذلك لما امتازا به من دقة حالت دون تسرب الشك لما جمعا من أحاديث .

وقد كان ما ينطق به رسول الله صلوات الله عليه يتلقاه من الملأ الأعلى اما بطريق مباشر . وهذا ما يسمى بالوحى . وهذا هو طريق تلقيه للقرآن الكريم ، واما بطريق غير مباشر ، وهذا ما يسمى بالالهام الذى كان يتحكم فى أقواله وأعماله التى يعتبرها المسلمون سننا مقدسة .

(أ) « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (١) .

(ب) «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (٢) .

وأحاديث الرسول هى المثل الأعلى للفصاحة العربية بعد القرآن الكريم (أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد بن

---

(١) سورة النساء من آية (٨٠) .

(٢) سورة الاحزاب آية (٢١) .

بكر) (١) ولم يجد الزمان ولن يجود بخطيب او كاتب أبلغ أو أفصح من محمد بن عبد الله « بعثت بجوامع الكلم ونصرت بالرعب » .

ولقد ترك صلى الله عليه وسلم للانسانية تراثا أدبيا وعلميا لم يترك نبي أو مصلح لأمة مثله ، هذا التراث الفكري من سيد عباقرة الدنيا ستظل الايام تفخر به وتحرص عليه حرص البخيل على درهمه . وستظل يهديها السبيل وينير لها الطريق ؛ يشع منه نور يبدد من طريقها حالك الظلمات كلما تكالبت عليها النوائب والمدلهمات .

وليست الفصاحة والبلاغة والسلاسة وعذوبة المنطق هي كل ماتمتاز به أحاديث الرسول ، بل انها تمتاز بالحجا والحكمة وفصل الخطاب، وهي كذلك تحوى دستورا أخلاقيا لم يعرف العالم أنقى ولا أروع منه ، ودستورا صحيحا لم تشهد الانسانية أحكم منه ، وعلما بلغ من الدقة حدا لا يجارى .

---

(١) حديث شريف .

٢ ـ ثروة الأحاديث العلمية :

١ ـ البكتريا والجراثيم والجريثيمات ·

ان الاعجاز العلمى للاحاديث لاتظهر فى حديث واحد فقط ولكن فى مئات الأحاديث وسأضرب مثلا قوله صلوات الله عليه : (تنكبوا الغبار فان منه تكون النسمة) (١) ·

والنسمة لها معان عدة من بينها

(أ) الطير الخفاف السراع التى لايمكن العين أن تستبينها لخفتها وسرعتها ·

(ب) الشىء الحى صغر أم كبر ·

فاذا أخذنا الحديث بأحد هذين المعنيين تجلى لنا فيه دقة علمية معجزة ، اذ يكون معناه

تجنبوا الغبار فان بسبب وجوده فى الهواء به كائنات حية صغيرة لايمكن العين أن تستبينها تسبب أضرارا لكم ·

وليست هذه الكائنات الحية التى يشير اليها الحديث الا البكتريا والجراثيم التى كشفها الانسان بعد أن عرف المجهر العادى ، والجريثيمات او الفيروسات التى كشفها بعد أن عرف المجهر الكهربى ، الذى سنتطيع الانسان به تمييز الكائنات التى لايزيد قطرها على جزء واحد من مائة الف جزء من البوصة ·

وهذه الكائنات تستخدم ذرات الغبار والاتربة وسائل تسبح عليها فى الهواء وهى تكثر كلما كثر الغبار فى الهواء وتقل كلما قل ·

فمن علم محمدا الذى لم يعرف القراءة والكتابة هذا ؟

لم يعلمه بالتأكيد بشر ، فهم وقتئذ وبعد ذلك بعديد القرون كانوا

(١) ورد هذا الحديث في قاموس مختار الصحاح ·

لبعض ما يحمل هذا الحديث من معنى جاهلين ، اما معناه الكامل فلم تتبينه البشرية الا هذه الأيام · ولماذا يتجنب الناس الغبار ؟

يتجنبونه ليتفادوا من أضرار عدة فالجراثيم والبكتريا والفيروس التى تتخذ الغبار مطية لها وتسبب أمراضا كثيرة تسبب نزلات البرد والتهاب الرئة والزكام والتهاب الغدة النكفية والحصبة والتهابات الزوز والجدرى الكاذب ·

الأمراض الأخرى

هذا مايحدث اذا اعتبرنا النسمة بمعني الشيء الحي الصغير وابها لقائمة مخيفة من الامراض ، أما اذا أخذناها بأحد معانيها اللغوية الأخرى وهو (الربو) كما فسرها بعض المفسرين فان هذا الحديث يبين لنا وجها آخر من أنواع الخطر يجب أن نتفاداه · فكلام الرسول كالجواهر لكل وجه وجه منها بربق أخاذ ·

ولكى نعلم مقدار ماينطوى عليه هذا الحديث من صدق علمى ومن فائدة للبشرية اذافسر على هذا الوجه ، يجب أن نعرف أن الاتربة تنقسم الى :

(أ) أتربة عضوية نباتية أو حيوانية ·
(ب) أتربة معدنية ·
(جـ) أتربة-مختلطة تجمع بين النوعين السابقين ·

الأتربة العضوية

تحدث هذه الأتربة الربو والالتهابات الشعبية والرئوية ففى صناعة الغزل والطباعة وعمل القبعات والتنجيد وصناعة الاحذية والنجارةوتجليد الكتب يصاب العمال بالسل الرئوى ، أما فى صناعة الجلود والشعر فيتعرض العامل لمرض الجمرة الخبيثة · وهذا المرض يصيب الجلد فى الغالب ، وقد تصاب الامعاء به ، اذا ابتلعت الأتربة · ويسمى المرض فى هذه الحالة الاخيرة الجمرة الرئوية ، وكلها اصابات قاتلة ·

ويتعرض العمال فى صناعة الجوت لمرض التيتانوس · أما مرض السقاوة فيصيب الخيل والحمير والبغال كما يصيب السواس أيضا : وقد يصاب عمال الجلود والاصواف أيضا بمرض الحمى الفحمية ، اذا كانت هذه الاشياء لحيوانات كانت مصابة بهذا المرض ·

الاتربة المعدنية

يحدث منها أمراض السل الرئوى كما هو مشاهد بين عمال الجرانيت والحجر الرملى والكوارتز ، وكما يشاهد بين عمال جلخ المعـــادن وصقلها وعمال صناعة الخزف ، ويصيب التسمم العمال المشتغلين فى الرصاص والزرنيخ والمانجانيز والزئبق .

ويدخل الرصاص الجســـم عن طريق الفم أو عن طريق الأنف . ويعترى العامل شحوب فى الوجه والاغشية المخاطية للشفة والملتحمة . ثم تظهر أعراض التسمم فجأة . فيشعر العامل بمغص شديد مصحوب بقيء وامساك . ويؤدى المرض فى حالة استمراره الى شلل فى اليدين عند المعصم والاصابع والذراعين ومفاصل القدمين .

أما التسمم الزرنيخى فان أعراضه تظهر على الجلد والاغشية المخاطية فى الجهاز التنفسى وفى الامعاء . واذا وقعت أتربة الزرنيخ على الجـلد احدثت فيه تهيجا ، وعلى الاخص حول الانف والفم وتحت الابط ينتهى الى تقرحات . ويسبب التهابا فى الملتحمة وورما فى الجفون وفى الزور مصحوبا بصداع وعطش شديد ، وفقدان للشهية ومغص وقيء واسهال وسعال . ويشعر المريض بوخز كوخز الابر أو الدبابيس . وتظهر بقع صغيرة سمراء على الجفون والوجنتين والرقبة وتحت الابط . وقد يتآكل الغضروف الأوسط للأنف .

أما التسمم الزئبقى فيحدث بين عمال مناجم الزئبق ومناجم الذهب والفضة لاستعمال الزئبق فيها ومصانع البـارومترات والترمومترات . ويدخل الزئبق الجســـم عن طريق الفم أو الانف . وأعراضه ارتعاش الاطراف والجسم والتهاب فى الفم وعلى اللثة التى تتورم وتنزف وزيادة فى اللعاب وآلام المفاصل والضعف العام وتساقط الأسنان .

أما التسمم المنجانيزى فيصيب عمـال مناجم المانجانيزى . وتنتج عنه أمراض عقلية تتمثل فى الثرثرة التى يتبعها التبلد والغباوة والخبل وتدلى الفك وسيل اللعاب بكثرة . كما تنتج عنه أمراض عصبية تتمثل فى تصلب العضلات ورعشة فى بعض عضلات اللسان ، وهزات فى الركب ، وصعوبة فى النطق وتصلب فى الذراعين والمعصمين وعضلات الفك .

هذا هو التراث العلمى الذى تضمنه حديث واحد . وهناك من الاحاديث مئات تحمل أحدث النظريات ستكشف عن بهائها الايام رويدا رويدا ..

٣ ـ التلفزة أو الرؤية عن بعد :

حدثت الرؤية عن بعد لاول مرة فى تاريخ البشر لافى هذا العصر كما يعتقد الناس ، ولكن قبل ذلك بأمد بعيد · فقد حدثت فى عصر محمد ابن عبد الله ، حدثت حينئذ بغير أجهزة وآلات ، لتبقى على مر العصور احدى المعجزات الباهرات ·

أخبر محمد انه أسرى به ليلا الى بيت المقدس من مكة ·

(سبحان الذى أسرى بعبده ليـــلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله) (١) كذبته قريش ، وتحداه الذين ساروا من قبل الى بيت المقدس أن يصفه لهم ·

لقد زار محمد المسجد ليلا ولم يتبين معالمه ودقائقه ، ولكنه قبـــل التحدى ، فلقد أراه الله وهو جالس فى مكة بيت المقدس فأخذ يصفه وكأنه ينظر اليه · كشف له بيت المقدس عبر مايقرب من خمسين وثمانمائة ميل وتمثل أمام ناظريه (لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر ، فجلا الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وانا أنظر اليه) (٢) ·

دهش السامعون ولم يكن فى وسعهـــم الا أن يصـــدقوا ذلك الذى انتقل ليلا من مكة الى بيت المقدس دون أن يشعروا · صدقوه فى الوصف قائلين :

أما النعت فقد أصاب ، اذ كانوا مع ذلك ينكرون انه انتقل وعاد ، مع انهم كانوا يعلمون علم اليقين انه لم يزر بيت المقدس فى حياته قبـــل نبوته ولا بعدها الا فى هذا الحادث العجيب ·

طلبوا منه دليلا آخر ، فأعطاهم دليلا ماديا فى قافلة لهم كانت قادمة الى مكة · اخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يتقدمها جمل أورق · وفعلا قدمت العير فى الموعد الذى ضربه

---

(١) سورة الاسراء الآية (١) ·

(٢) حديث شريف ·

وبالحالة التى وصفها . ومع ذلك أنكروا وقالوا : انه لسحر مبين :

أما المعجزة الأخرى فهى « تنبؤ » رسول الله صلى الله عليه سلم بأن المسلمين سيفتحون الشام وبلاد فارس ، وقد تحققت هذه « النبوءة » بعد وفاة الرسول مباشرة . أما اليمن فان الحديث يدل على أنها لن تفتح عنوة ، ولكنها ستستسلم بدون حرب ، وهذا ما حدث فعلا .

ومما يزيد فى روعة ما يحمل هذا الحديث من اعجاز انه قيل وقت أن كان كل المسلمين فى كرب شديد ، اذ تحالف عليهم أعداؤهم من عرب ويهود ، وتألبت عليهم الجزيرة العربية بقضها وقضيضها ، ورمت اليهم بجيوشها الجرارة ، ليحيطوا بها احاطة السوار بالمعصم وينقضوا عليها من كل جانب ، فى وقت ، وجد المسلمون فيه أنهم لن يصمدوا فى وجه تلك القوى المتأهبة لحربهم ، الا اذا أحاطوا مملكتهم الصغيرة — التى أصبحت فيما بعد عاصمة امبراطورية عظيمة — بخندق يحميها .

ولم .
تيسر لمحمد
مكانه لم ي
عجبو
محمد ستص
وان ماكان
احدى البد
والفر
العلم الآن .
اما معجزة
ولم

لهذه المعجزة التى آتبت العلم صدقها بعد ان شك فيها كثير من المرتابين .
فان هناك مثلا آخر لايقل فى بهائه وجلاله عن المثل السابق : فحينما كان المسلمون يحفرون الخندق حول المدينة اعترضتهم صخرة شقت عليهم ، واستعصت على معاولهم . فما كان منهم الا أن استنجدوا بصاحب الرسالة فضربها ثلاث ضربات انهالت بعدها وأصبحت كثيبا ، وكان الرسول عليه السلام كلما ضرب ضربة برق برق تحت المعول .

سأله عن ذلك سلمان الفارسى رضى الله عنه فقال له :

(أما الضربة الاولى فان الله فتح على بها الشام ، والله لقد أبصرت قصورها الحمر من مكانى هذا ، واما الثانية فان الله فتح على بها فارس ، والله لقد أبصرت قصر المدائن الآن ، وأما الثالثة فقد أعطانى الله بها مفاتيح اليمن ، والله لقد أبصرت الآن باب صنعاء) .

وهذا الحديث يحمل فى طياته معجزتين :

أولاهما رؤية الرسول صلوات الله عليه قصور الشام الحمر ، وقصر كسرى الابيض فى فارس ، وصنعاء فى اليمن ، وهو حول يثرب ، وهذه هى الرؤية من بعد التى جاء العلم الحديث مصدقا لها ومسلما بها ، وهاهى ذى أجهزة التلفزة منتشرة فى أنحاء العالم تنطق بعد أربعة عشر قرنا بصدق محمد .

أما المعجزة الأخرى فهى « تنبؤ » رسول الله صلى الله عليه سلم بأن المسلمين سيفتحون الشام وبلاد فارس ، وقد تحققت هذه « النبوءة » بعد وفاة الرسول مباشرة . أما اليمن فان الحديث يدل على أنها لن تفتح عنوة ، ولكنها ستستسلم بدون حرب ، وهذا ما حدث فعلا .

ومما يزيد فى روعة ما يحمل هذا الحديث من اعجاز انه قيل وقت أن كان كل المسلمين فى كرب شديد ، اذ تحالف عليهم أعداؤهم من عرب ويهود ، وتألبت عليهم الجزيرة العربية بقضها وقضيضها ، ورمت اليهم بجيوشها الجرارة ، ليحيطوا بها احاطة السوار بالمعصم وينقضوا عليها من كل جانب ، في وقت ، وجد المسلمون فيه أنهم لن يصمدوا فى وجه تلك القوى المتأهبة لحربهم ، الا اذا أحاطوا مملكتهم الصغيرة — التى أصبحت فيما بعد عاصمة امبراطورية عظيمة — بخندق يحميها .

٤ ــ تاريخ المستقبل :

أخبر الرسول صلوات الله عليه أصحابه بأنهم سيفتحون مصر . وان مصر ستكون عزا ومنعة للاسلام وعونا له فى الجهاد فى حديث رواه الطبرانى .

(الله الله فى قبط مصر . فانكم ستظهرون عليهم . ليكونوا لكم عدة واعوانا فى سبيل الله) (١) .

ولقد تم هذا فعلا ، ففتح العرب مصر . وصارت بعد أن دخلت فى حوزة الامبراطورية الاسلامية أعز مملكة فيها ، وكان لها فضل كبير فى صد أعداء الاسلام ورفع رايته فى مناسبتين عظيمتين :

أولاهما .. أنها كانت مركز مقاومة الصليبيين ، فقد ظلت تقاومهم حتى أخرجتهم من جميع الديار الاسلامية . وأخراهما .. هزيمة التتر وصد تيارهم الجارف فى موقعة « عين جالوت » التى حمت الشرق والغرب من بربرية المغول الذين كانوا يسجدون للشمس من دون الله .

وكان الفضل الاول فى رد عادية تلك الجيوش الجرارة التى اكتسحت كل الامم امامها .. لجيش مصر . فلو لم تقف مصر وقفتها التاريخية المشهورة أمامهم لاندثرت حضارة الشرق وقضى على نهضة الغرب فى مهدها . ففضل مصر فضل على الدنيا بأسرها .

ونظرا لان هذه الموقعة كانت موقعة حاسمة فى تاريخ المدنية يحسن بنا أن نسرد تاريخها . فبعد أن استولى «هولاكو» على بغداد فى فبراير سنة ١٢٥٨ وقتل « المعتصم بالله » . آخر الخلفاء العباسيين ودمر بغداد ورمى بمكتبتها الى نهر دجلة .. أرسل أخاه بجيوشه الجرارة فأغار على الشام مدمرا كل شىء فى طريقه . وكان الكثير من مدن آسيا الصغرى والشام تفتح أبوابها لهذه الجيوش خشية التنكيل بها . وعلى الرغم من ذلك فلم تنج هذه البلاد من وحشية التتر ، اذ كانوا يقتلون أبناءها بالالوف حتى ينشروا الرعب فى غيرها من البلاد

(١) رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى دلائل النبوة عن أم سلمة .

ثم أرسل (هولاكو) رسله الى مصر ، وكان حاكمها حينئذ السلطان المظفر (قطز حشواش) من سلاطين المماليك البحرية فجمع مستشاريه ، فأشاروا عليه بقتل رسل هولاكو ، فقتلهم وعلق رءوسهم على باب زويلة ماعدا واحدا أرسل معه رسالة الى هولاكو قال فيها :

لن نسلم ، سنأخذ ثار الخليفة العباسي وثأر المسلمين منكم ، فأرسل هولاكو جيشا عرمرما بقيادة أخيه ، وســار جيش المماليك تحت قيادة قطز ٠

وعلى الرغم من أن جيش المماليك كان صغيرا بالنسبة لجيش التتر ، فانه انتصر عليهم انتصارا حاسما ، وقتل قائدهم ٠ وولى التتر الادبار فتتبع المماليك فلولهم وقتلوا منهم العدد الكثير ٠ واسترد المسلمون حلب ودمشق ٠

وقد حدثت هذه الموقعة في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ٠ وكان من نتيجة هذه المعركة أن أنقذت مصر وأوربا من وحشية التتار مما دعا البابا أن يرسل الى سلطان مصر « الظاهر بيبرس البندقدارى » الذى خلف السلطان قطز ، يشكره ويخبره أن هذه المعركة لم تنقذ مصر فحسب بل انقذت أوربا كذلك ٠

وبذلك فقد تحقق الحديث بشطريه : فتح المسلمون مصر ، وأصبحت عدة وعونا لهم فى سبيل الله ، اذ خلصت الاسلام من خطرين كبيرين الخطر الصليبى ثم الخطر المغولى . وستساهم مصر بالنصيب الاكبر فى تخليص الاسلام ان شاء الله مما يتهدده الآن من أخطار ٠

والسبب الذى جعل مصر حصنا للاسلام فى أحلك أيامه انها انفردت عن اخواتها الاسلاميات بظاهرة فريدة ، تلك وحدتها الشاملة التى سادت نواحيها السياسية والاجتماعية والفكرية ، فلم تنشأ فيها مذاهب وفرق كما لم تترعرع فى ربوعها نزعات شيعية او غير شيعية ٠ وكانت هــذه الوحدة الشاملة عصمة الاسـلام الكبرى فى عصــور الفتنة والفوضى والاضمحلال ٠ فقد أتت على الشرق الاسلامى أعصر نزلت بساحته الخطوب وانهالت عليها الويلات وتواثب به الأعداء من كل جانب ، وتفرق أنصاره فى كل مكان شيعا وطرائق ، فلم تبق له الوحدة المباركة ولا الأمن العاصم الا على ضفاف النيل ٠

ولا يقتصر تأريخ المستقبل فى أحاديث الرسول الـكريم على حديث أو على عشرات ، بل يتعداه الى مئات يحتاج شرحها الى مجلدات ٠ وقد انحنى التاريخ اجلالا واكبارا أمام روعة هذه « التنبؤات » ٠

٥ ـ النقل الاثيرى أو اللاسلكى : « مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلم »

لم يقتصر الاسلام على الاخبار عن الرؤية عن بعد فحسب ، بل انه أخبر أيضا عن النقل الأثيرى ، فقد وقف عمر ـ رضى الله عنه ـ على المنبر يوم جمعة ليخطب . فاذا به يلتفت وينادى :

(ياسارية بن حصن ، الجبل ٠٠ الجبـل ! ومن استرعى الذئب ظلم) ٠

فلما قضى صـلاته سـأله « على » كرم الله وجهه : ما هذا الذى ناديت به ؟ ٠

قال : أو سمعته ؟

قال : نعم أنا وكل من فى المسجد ٠

فقال : وقع فى خلدى أن المشركين هزموا اخواننا وركبوا أكتافهم وانهم يمرون بجبل ، فان عدلوا اليه قاتلوا من وجدوه وظفروا ، وان جاوزوه هلكوا ، فخرج منى هذا الكلام ٠

وكان يفصل سـارية فى بلاد الفرس ، عن عمر فى يثرب ٠٠ فوق تسعمائة ميل ٠ لشد ما كانت دهشته هو ومن معه حينما سمعوا صوت عمر يناديهم فأطاعوا واعتصموا بالجبل فانتصروا .

وجاء البشير بعد شهر يقول : سمعنا فى ذلك اليوم وتلك الساعة صوتا يشبه صوت عمر يقول : ياسارية بن حصن ٠٠ الجبل الجبل ٠٠ فعدلنا اليه ففتح الله علينا ٠

وهذا الحادث طبقا لهذه الرواية يبين لنا اعتقاد عمر فى أن صوته سيحمله الأثير عبر هذه المسافة الطويلة كما هو حاصل الآن فى الاذاعة اللاسلكية ٠ كما يتخذ دليلا أيضا على الشعور عن بعد ، وهو الذى يطلق عليه العلماء النفسانيون لفظ (التلباثى) (١) ٠

---

(1) Telepathy

وقد رويت تلك الحادثة برواية اخرى لاتختلف عن الرواية السابقة الا في مقدمتها ، اذ هي تقول : ان عمر قد رأى فيما يرى النائم في ساعة من النهار جيش سارية وقد دهمه الأكراد الفارسيون ، ورأى موقع كل من الفريقين ، فنادى من الغد ، الصلاة جامعة . حتى اذا كان في الساعة التي رأى فيها مارأى خرج اليهم ثم قام فقال :

يأيها الناس اني رأيت هذين الجمعين . وأخبر بحالهما ثم قال :

ياسارية الجبل .. الجبل . .

ثم اراد أن يعلل صنيعه لهم فقال :

ان لله جنودا ولعل بعضها أن يبلغهم .

وما تلك الجنود التي قصدها عمر غير تلك القوى التي بثها الله في الكون ، فعرف سرها الانسان في القرن العشرين وسخرها في اذاعته.

وقد ظل الناس بين مصدق ومكذب لهذه الحقيقة حتى أتاهم الخبر اليقين . فأمكن أن يتكلم انسان في مصر فيسمعه من في أمريكا ومن في اليابان على بعد الآلاف من الأميال ، وأصبح في طوق الانسان أن يسمع ما يذاع من جميع الأرجاء بجهاز لا مصدر له الا ما تحمله الأجواء .

فانظر الى أي حد من الدقة العلمية وصلت أحاديث رسول الله ومن تربوا في مدرسته . أولئك الذين نشئوا في قوم أميين كانوا يعيشون في صحراء جرداء . منعزلين عما حولهم من المدنيات القديمة التي كانت بدورها غارقة في ظلام دامس من الجهل ، فأتى النبي وانزل الله عليه كتابا أضاء الدنيا بنوره ، فبدد منها الظلمات واخذ بدوره يشرح رسالته ، فكانت حياته كلها آيات بينات .

وقد كانت أعماله وأقواله كلها سلسلة من المعجزات متصلة الحلقات ، وقد قبس أصحابه من نوره فصاروا الاعلام والمثل العليا للانسانية في جميع الاوقات . (يأيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) .

٦ ـ الوطن القومى أو الملحمة الكبرى :

وأخيرا ، وبعد أن قطعوا فى الارض أمما وذاقوا العـــذاب ألوانا وضـــاقت عليهم الارض بمـــا رحبت وضربت عليهم الذلة والمسكنة أينمـــا ثقفوا كون اليهود لهم وطنا قوميا ، وظنوا أن هذا سيكون نهاية آلامهم ومبدأ استقرارهم ، ظنوا انهم ألقوا عصا الترحال ، وان هذا هو نهـــاية المطاف .

لقد أساءوا الى من احسنوا اليهم فى أوقات محنتهم وأكرموا وفادتهم وآووهم وأفسحوا لهم صدورهم وفتحوا لهم أبوابهم . انهم عضوا اليد التى اطعمتهم واغتصبوا جزءا من الدار التى آوتهم . ظنوا انهم بذلك سيستقرون ، ولكن أحقا ما يظنون ؟

اذا سألتهم رايت الحيرة على وجوههم ، فهم فى وســـط بحر لجى من العداوة والبغضاء . وأنى لقوم هذه حالتهم أن يشعروا بطمـــأنينة او استقرار ؟ لقد قدموا الى فلسطين لكى يستقروا ولكن احقا انهم كما قال الشاعر

فألقت عصاها واستقر بها النوى　　　　كما قر عينا بالاياب المسافر ؟

لقد اجاب محمد صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال منذ ما يقرب من اربعة عشر قرنا . أجاب عنه واليهود جماعات متفرقة فى أنحاء الارض ، اذ كانوا قد طردوا من فلسطين منذ ١٣٥ م حينما هـــدم الامبراطور (هادريان) أورشليم من اساسها وبنى على أنقاضها مدينة جديدة وأمر بذبح مئات الآلاف منهم وبيع الباقين وتشريدهم . فمزقوا شر ممزق أجاب عنه اجابة واضحة جلية ، اجابة تعاقب العديد من القرون عليها حتى لاحت بوادرها وتهيأت ظروفها ، أجاب بقوله صلى الله عليه وسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(لاتقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه اليهودى:

يا مسلم هذا يهودى ورائى فاقتله) (١) .

وسارت الايام ومرت مئات الاعوام وتطورت الاحوال وقامت دول ودالت ، واليهود فى الدنيا ضالون أشتاتا متناثرة مضروب عليهم الذلة والمسكنة ، يلقون العذاب وهم صامدون ، لايحلم أوسع الناس خيالا بتجمعهم ، لا علاقة بينهم وبين المسلمين كشعب : لا تجاور ولا احتكاك ولا أسباب تؤدى الى ذلك اطلاقا ، ولكن الكلمة لابد أن تتم .

« وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى » .

ولكى تتم كان على الايام أن توفر شرطين أساسيين :

اولهما : أن يجتمع أمر اليهود فى صعيد واحد وأن يكون لهم فى هذا المكان دولة وسلطان .

وآخرهما : أن تتوافر بينهم وبين العرب من أسباب العداوة والبغضاء مامن شأنه أن يؤدى الى قيام حرب بينهما .

هذان هما الشرطان الضروريان المفروض توافرهما تمهيدا لتحقيق ماورد بهذا الحديث الشريف .

وكل ناظر فى تاريخ اليهود الذى هو سلسلة متصلة الحلقات من الاضطهادات كان يرى ذلك ضربا من المستحيلات ، فقد صب الدهر جام غضبه عليهم ولاحقتهم المذابح وافانين التعذيب فى كل مكان لجئوا اليه .

ولكن القدر لايأبه بظنون الناس ، اذ لابد أن يتخذ سبيله الى نهايته ولو ناقضته الظنون ، فهو لايبنى نتائجه على مقدمات لانه يطور الحوادث كما يشاء . ولقد شهد القرن العشرون بعد مرور ما يقرب من أربعة عشر قرنا على هذا الحديث الشريف بوادر تحقيق ما جاء فيه :

فالفئتان الآن يواجه بعضهما بعضا فى ميدانين متلاصقين .. تتربص كل منهما بالاخرى الدوائر ، كل يريد أن يثب على غريمه ليقضى عليه ، وقد بدأت المعركة أولى مراحلها ولكنها لم تنته بعد .

---

(١) وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تقاتلون اليهود حتى يختبىء احدهم وراء الحجر ويقول ياعبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله»

وهذا التطور الذى حدث يعتبر تطورا مفاجئا ليس له مقدمات ولا مبررات ، تطورا كان يظن أنه أحد المستحيلات • ولقد كان الشرق هو المكان الوحيد الذى أكرم وفادة اليهود وعطف عليهم وفتح أبوابه لأفواجهم التى لفظتها البلاد الاوربية لفظ النواة ، كان الشرق ـ والمسلمون خاصة هو الذى أكرم منواهم فعاشوا فيه مطمئنين اذ بين المسلمين والتعصب حائل قوى من دينهم الذى يدعو الى التسامح المطلق والذى يعتبر نفسه خلاصة الإديان التى سبقته :

١ ـ (قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) (١) .

٢ ـ آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله) (٢)

فالمسلم الذى لا يؤمن برسالة موسى وعيسى لا يعد مسلما قط • وقد ذهب الاسلام فى التسامح الى أبعد حد فحرم الاعتداء لا على أهل الكتاب فحسب ، بل على جميع الذميين سواء من كان منهم من أهل الكتاب ومن كان من الوثنيين ، انظر الى قوله صلى الله عليه وسلم •

(من قتل ذميا لم يرح رائحة الجنة) (٣) •

أليس هذا مثلا رائعا يزيد من روعته موجة التعصب الجنسى وما يصحبها من اعتداءات وحشية ضد الكرامة الانسانية فى بعض أقطار الارض « كجنوب افريقية » وأمريكا فى عصر الحضارة والنور والمدنية ؟ •

اذن فلم يكن هناك أى مبرر اطلاقا لاية عداوة أو جفاء بين الفريقين•

وأما اجتماع اليهود فى صعيد واحد بعد ما يزيد على ثمانية عشر قرنا من التشريد والنفى فهو أمر أعجب من وجود بغضاء بينهم وبين قوم أغاثوهم فى المصائب وأعانوهم على النوائب ، هو شىء عجيب اذا حكمنا بظواهر الاحوال ، ولكن هل تجرى ظواهر الاحوال وفى جعبة القدر الذى رسم

---

(١) البقرة : آية (١٣٦) •

(٢)البقرة : آية (٢٨٥) •

(٣) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وان رائحتها توجد من مسيرة اربعين عاما» .

حظوظ الماضي والحاضر والمستقبل سهم آخر يريد أن يقذف به في نحر . ـ توعدهم بأن يسيمهم سوء العذاب حتى آخر الزمان ؟

(واذ تاذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم ســــوء العذاب) (١) ٠

هذه الآية سار على هديها الزمان وسيسير على هديهـا حتى تفنى الليالى والايام ٠٠ فحينما أتى بنو اسرائيل الى مصر ومكثوا فيهـــا حتى تكاثروا سامهم احد الفراعنة العذاب : ذبح أبناءهم واستحيا نساءهم ، ذهبوا الى فلسطين وعلوا في الارض ٠ وبعد موت سليمان بن داود قسمت مملكتهم قسمين : مملكة اسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب٠ وقعت بينهما مصادمات مستمرة وأذاق الله بعضهم بأس بعض ٠ وقضى الاشوريون في عهد ملكهم (سالماذار) على مملكة اسرائيل في الشمال ، واستولوا على عاصمتها (السامرة) وقادوا أهلها أسرى الى أشور ٠

وفى سنة ٣٠ ميلادية عندما ثار اليهود امر (تيتوس) باحراق ودخل أورشليم وخربها وقاد أكثر أهلها أسرى الى بابل ٠

وحينما شاء القدر أن يرجعوا الى فلسطين ثانية في عهد «كورش» امبراطور الفرس الذى استولى على بابل ،عاد منهم ٤٢ الف رجل بعائلاتهم وأسسوا مملكة يهوذا تحت الحماية الفارسية ، ومنذ ذلك الحين أطلق عليهم اسم اليهود ، ولم يكونوا يعرفون بهذا الاسم من قبل ، كما أعاد لهم « دارا » بناء بيت المقدس ، ولكن في عام ٣٢٠ ق٠م احتل السوريون هذه المملكة وأذاقوا اليهود ســـوء العـذاب بما عملوا وأثقلوا كواهلهم بالضرائب ، وحوالى ٦٣ ق٠م حينما استولى الرومان على فلسطين ذبحوا أحبار اليهود و... ...رب من اثنى عشر ألفا منهم ٠

وفى سنة ٣٠ ميلادية عندما ثار اليهود ، امر (تيتوس) باحراق معبدهم ، وذبح معظم اهالى اورشليم ، وبيع من بقى منهم ٠ ولم يبق منهم غير الذين فروا الى الجبال ٠

عاد الفارون من الجبال الى أورشليم ثانية : عادوا ليبعث الله عليهم عذابا جديدا : فحينما ثاروا هدم (هادريان) المدينة من أساسها سنة ١٣٥ ميلادية وبنى مدينة جديدة مكانها ، وذبح مئات الآلاف وأمر ببيع الباقى وتشريدهم ، وحرمت عليهم فلسطين بتاتا ٠

---

(١) سورة الاعراف : من آية (١٦٦) ٠

هاجروا الى بلاد الشرق وأوربا ، كان تاريخهم فى اوربا تاريخا قاتما معتما ، كان المسيحيون يلقون عليهم تبعة دم المسيح وينسبون اليهم المصائب القومية ويذبحونهم كأنهم نعاج ، وكانوا يعتبرون طردهم وقتلهم من أعمال البر والتقوى ، وكان اليهود يسكنون أقساما منعزلة فى المدن ، أقساما قذرة ترتع فيها الأوبئة ، ويتحتم عليهم وضع علامات مهينة على ملابسهم لتمييزهم عن غيرهم ، طردوا من جميع الممالك الاوربية وصودرت أملاكهم ، وسقط منهم أيام الحروب الصليبية الوف صرعى بأيدى الجموع الهائجة ، وفى سنة ١٣٤٧ عند انتشار وباء الموت الاسود فى أوربا نسب الأوربيون اليهم أسباب الوباء وأخذوا يلقون بهم فى النار بالمئات والألوف .

وقد شهد القرن العشرون أكبر مأساة داهمت اليهود على يد هتلر الذى أعلن أن اليهود أعدى أعداء النازية واعتبرهم وباء يجب استئصاله . ذبحهم النازيون ذبح النعاج فى كل قطر سيطروا عليه ، وقد قدر صرعى اليهود فى الحرب العالمية الثانية بخمسة ملايين او ما يزيد .

لقد صدقت الآية وكان لابد لها أن تصدق . صدقت وتحقق كل حرف فيها :

فتاريخ اليهود عبارة عن مجموعة من النكبات والاضطهادات والعذاب الذى لم ينقطع : يعطيهم الدهر مهلة لكى يقلعوا عن آثامهم ومؤامراتهم وكيدهم . ولكن أنى لهم وقد طبعوا على ذلك : انهم لا يرعون الا ولا ذمة . اذن فلتعد اليهم النكبات .

(وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) (١) .

ولم تسر الآية الى نهاية شوطها بعد ، فقد شملت الزمان الى نهايته : توعدهم الله أن يصب عليهم العذاب على يد من يرسلهم من عباده لهذا الغرض حتى تقوم القيامة .

(ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) (٢) .

فى صفحة الايام لهم عذاب جديد . عذاب من صنع أيديهم .

---

(١) الاسراء : من آية ٨١ .

(٢) آل عمران : من آية ١١٢ .

(وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون) (١) أنكروا جميل القرون . ارادت أوربا أن تتخلص منهم ، فأين يجدون المأوى ؟ يمموا شطر الشرق لا ضيوفا فيكون لهم الاكرام كما أكرموا فى سالف الازمان ولكن غزاة مغتصبين .

وقد ساعدهم الغرب لاحبا فيهم بل تخلصا من شرهم ، تخلصا من قوم يحملون لهم حقدا دفينا لا تمحوه الايام ، وكانت نتيجة ذلك أن خسر اليهود الشرق كما خسروا الغرب من قبل ، وهم لايعلمون انهم بفعلتهم هذه انما يحفرون قبورهم بأيديهم وهم لا يشعرون .

لقد احتلوا قطعة من أرض العرب واغتصبوا ديارهم وأموالهم ، وشردوا مئات الآلاف منهم وأخذوا يستقبلون أفواج المهاجرين من أنحاء أوربا ، وبذلك أخذ الموقف يتبلور استعدادا للمعركة الحاسمة .

ولكن أنى للعرب الذين كانوا يغطون فى نومهم حتى تكالبت عليهم أصناف البلاء والاستعمار والانحلال، أنى لهم أن يتغلبوا على قوم يساندهم أقوام أولو بأس شديد اذا لم يتحدوا ويعتصموا بحبل الله ؟ هنا يجب أن تصمت الالسن وتخشع القلوب . فان الكلمة لابد أن تتم ولا تجد من الايام الا عوامل تؤمر فتصدع . ان هذا الخطر المحدق ليس شرا للعرب بل هو الخير كل الخير .

« لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم » (٢) .

فقد أيقن العرب حينما ربض الخطر ماثلا أمامهم أن لا حياة لهم الا اذا نفضوا عنهم غبار الكسل والتراخي والتواكل وغيروا من نفوسهم وأوضاعهم .

فاما حياة تبعث الميت فى البلى وتنبت فى تلك الرموس رفاتى
وأما ممات لا قيامة بعده ممات لعمرى لم يقس بممات

ان غريزة البقاء هى التى تسيطر على كيانهم . انهم أكثر نفيرا وأغنى موارد ، لهم حق ضائع وكرامة مجروحة ويربض بجوارهم العدو الذى اغتصب ديارهم على استعداد أن يغتصب منهم المزيد ، اذا أغمضوا عيونهم أو شعر بثغرة فى صفوفهم . اذن فالعداوة باقية ما بقى هذا الحق المغتصب

---

(١) النحل : من آية (٣٣) .
(٢) النور : من آية (١١) .

عداوة لا يحسمها الا الملحمة الكبرى التى تحدث عنها رسول الاسلام منذ ما يقرب من اربعة عشر قرنا وانها لواقعة لا محالة ٠

لقد كان ميزان القوى فى مبدأ الامر فى مصلحة اليهود ، ولكن هذا الميزان أخذ يميل تدريجيا نحو العرب ٠ لقد أخذ الأسد النائم بعد ان نفض عنه غبار القرون ، يستجمع قواه ويستعد لوثبته ليرضى كرامته المجروحة ، ليستعد لوثبة تهتز لها الدنيا ، وقد بدأ يزأر فتنخلع قلوب اعدائه لزئيره ٠

لقد وجدت أسباب للعداوة وتضيف الايام كل يوم لها جديدا ، انها تصب الزيت باستمرار على النار فتزداد اشتعالا ، وقد تجمع الفريقان للمعركة وجها لوجه وأصبح كل ينظم صفوفه استعدادا لساعة الفصل ٠ اذن فالايام قد هيأت الظرف لاتمام ماتضمنه الحديث الشريف الذى لم يحدثنا عن المعركة فحسب ، ولكن حدثنا أيضا عن نتيجتها : انتصار حاسم للمسلمين ٠

واعجبا كيف ينتصرون ؟

إن اليهود قد كسبوا الجولة الأولى والثانية وقد يكسبون جولات أخرى قد تكون مقدمة لعذاب اليم (وأملي لهم ان كيدي متين) انهم في موقف لا يحسدون عليه يزداد حرجا كلما مرت الايام ٠ هم فى رقعة من الارض يحيط بهم أعداؤهم من كل جانب كأنهم فى عنق زجاجة ، لا مجال يسمح لهم بالتكاثر ٠ كما أنها رقعة فقيرة جدباء ، ليس بها موارد تكفى حتى العدد الضئيل الذى هاجر اليها ٠ وهى على أكثر تقدير لا يمكن أن تستوعب أكثر من اربعة ملايين اذا اتخمت ، وقد بدءوا يشعرون أن أحلامهم قد بدأت تبخر حينما سلطت الحقائق عليها لهيبها ، كانوا يظنون أنهم بعودتهم الى فلسطين سيستعيدون الفردوس فاذا بالأزمات تلاحقهم والعداوة تحيط بهم من كل جانب٠ وقد بدءوا يستجدون العون المادى لقلة مواردهم والعون السياسى لشعورهم أن ميزان القوى بدأ يتبدل فى غير مصلحتهم وانه لا عاصم لهم من أعدائهم الا بطلب الحماية السياسية ممن صنعو دولتهم ٠

أما العرب فهم فى أوطان متسعة الارجاء تسع الملايين عدا ، تمتد من المحيط الاطلسى الى الخليج الفارسى ، يشغلها اليوم نحو المائة والثلاثين مليونا وبها من الموارد مالو استغلت لكفت أضعاف هذا العدد ، وموقع بلاد العرب فى ذاته مورد ثروة لها ، فهى بين قارات العالم القديم الثلاث ، وتتحكم فى الطرق الملاحية التى تسلكها البواخر التجارية بين هذه القارات ٠

وهذا يدر عليها ثروة لاباس بها ويضفي عليها أهمية تتزايد كلما زادت الحركة التجارية العالمية .

وكونها مهبط الاديان السماوية يعد عاملا من العوامل التى تجعل لها في نظر العالم مركزا خاصا ، كما أن تفجر البترول في أرضها بكميات هائلة منحها سلاحا ماليا يساعد على نهضتها وسلاحا سياسيا تستخدمه اذا دعت الحاجة اليه .

كما أن الحماية السياسية التى تتمتع بها تلك الدولة الوليدة ليس هناك ضمان لدوامها ، فقد تنشا ظروف لم تكن فى الحسبان تجعل هذه الحماية لا قيمة لها ، وبذلك تفقد اسرائيل أكبر درع واقية لها .

أضف الى ذلك أن السبعين مليونا من المسلمين يظاهرهم مئات الملايين الاخرى من المسلمين فى أنحاء العالم ، وهذا العدد من المسلمين يزداد ويتكاثر . وسيأتى اليوم الذى يجد اليهود فيه أنفسهم قلة تافهة أمام كثرة جارفة لاقبل لهم بمقاومتها ، وان كان المسلمون فيما مضى غثاء كغثاء السيل فان الخطر أيقظهم من سباتهم العميق فأفاقوا من غفوتهم وبدءوا ينطلقون وقد حفزهم الى هذا الانطلاق الخطر المحدق بهم :

فعام ١٩٤٨ ذلك العام الذى أعلن فيه الوطن القومى اليهودى ـ وان كان هو فى ظاهره نصرا لليهود ـ تجده عام نصر ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب ، وهو ـ وان كان خذلانا للعرب ـ فهو خذلان يحمل فى طياته ايقاظا لوعيهم . انه قد أفاد العرب فائدة لم تكن فى الحسبان اذ أظهر للعرب انهم اما أن يعيشوا أو يموتوا ، ولكى يعيشوا يجب أن يسايروا الركب ويغيروا أوضاعهم ويأخذوا بأسباب الرقى والتقدم ويتخلصوا من السوس الذى ينخر عظامهم .

وكانت نتيجة ذلك أن أخذ مجتمعهم ينصهر انصهارا عنيفا ليتطهر من الشوائب ولتخرج منه السبيكة التى سيصنع منها القدر السيف الذى سيحقق به كلمته .

أما الباغى فقد بدأ يشعر أن الارض أخذت تهتز تحت قدميه . وهو لذلك يسعى جاهدا لتدعيم مركزه عبثا : فهو يستجدى التبرعات ويكثر من المناورات ويستدعى المهاجرين ، وعدوه يحيط به ويضيق الحصار الاقتصادى والعسكرى عليه ، وكلما تقدمت الايام زادت الاحن واشتعلت نار البغضاء ، وحينما يستجمع العرب قوتهم ويقيمون نهضتهم على أسس قويمة ويصبحون يدا واحدة وقلبا واحدا حينئذ تكون الصورة قد استوفت

أركانها والوانها وظلالها ، وحينئذ لابد أن يلتحم الفريقان الالتحام الذى أشار اليه محمد صلى الله عليه وسلم منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنا حينئذ سيعلم الجميع أن قدوم اليهود الى فلسطين انما هو احدى حلقات مصائبهم واستمرار للنكبات التى تصبها عليهم الايام حتى آخر الزمان كما أشار الى ذلك القرآن ٠

ولعل بعض الناس يسأل لماذا اختص هذا الشعب بهذه النكبات المستمرة ؟ ٠

وللاجابة عن هذا السؤال يجب أن نعرف أن السبب الرئيسى فى هذا كامن فى طبيعة اليهود أنفسهم : فحينما جاء بنو اسرائيل الى مصر وتناسلوا وتكاثروا وطال عليهم الامد ، نسوا دينهم وتسربت وثنية المصريين الى قلوبهم ، وكان هذا هو السبب الذى من أجله صب الله لعنته عليهم على يد فرعون الذى أخذ يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، وليتهم ثابوا الى رشدهم بعد المعجزات التى رأوها على يد موسى ! اذ حينما وصلوا الى سيناء طلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة من الاصنام ٠

« فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة» (١) ٠

كما عبدوا عجل السامرى :

« ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتهم العجل من بعده وانتم ظالمون » (٢) ٠

ولذلك حرم الله عليهم فلسطين أربعين عاما ، بعد أن جبنوا أن يحاربوا الكنعانيين ، وكان السبب فى الأسر الآشورى والأسر البابلى وجميع النكبات التى توالت عليهم هو كفرهم وعصيانهم وعبادتهم المال من دون الله ٠

وهناك سبب جوهرى جعل الناس تمقتهم وتتجنبهم ، وهو اعتقادهم أنهم شعب الله المختار ؛ وهذا أوجد عندهم مركب عظمة جعلهم لايميلون للاختلاط بالاجناس والاندماج فى البيئة التى يعيشون فيها ، ولذلك كانت نظرتهم الى الناس ونظرة الناس اليهم نظرة الغريب الى الغريب ٠

---

(١) الأعراف : من آية (١٣٨) ٠

(٢) البقرة : آية (٩٢) ٠

وبما انهم ضعاف وقلة فقد سعوا الى ارضـــاء مركب عظمتهم عن طريق السيطرة بالمال : فأخذوا يكنزونه واستعملوا الربا ، واتخذوا المال السبيل الوحيد للسيطرة على المتصلين بهم ، وقد اتخـذوه فى عصرنا الحاضر سلاحا للسيطرة على سياسة الدول ولتنفيذ أغراضهم ، ولعلمهم أن المال وسيلتهم الوحيدة للسيطرة على غيرهم فانهم يسلكون جميع السبل للحصول عليه لا يرعون فى ذلك الا ولا شرفا ولا ذمة !

كما ان اعتقادهم أنهم شعب الله المختار وانهم يجب ان يسودوا العالم وهم قلة ضئيلة لاحساب لها عدديا ، جعلهم يسعون الى السيطرة عـلى العالم بالمؤامرات الخفية واثارة الحروب لافناء غيرهم · واعتنقوا مذهب أن الغاية تبرر الواسطة ، ولذلك نرى أن الشرف كلمة ليست فى قاموسهم السياسى ولا الاقتصادى ، فالربا عندهم محرم بين اليهود أنفسهم ، ولكنه حلال من يهودى لغيره ، فالحلال والحرام عنـدهم كلمتان اعتبـاريتان نسبيتان يختلف معناهما باختلاف الظروف · وان اعتداءهم الاخير على هذا الشعب الآمن الذى أكرمهم وما أساء اليهم قط انما هو مثل من أمثلة مقاييسهم الأخلاقية التى كرهت الغرب والشرق فيهم والتى هى سبب نكباتهم فيما مضى وما ستأتى لهم به الايام ·

ان قانون الحياة الابدى (كل الذين يأخـــذون السيف بالسيف يهلكون) ـ ذلك القانون الذى هو سنة الايام التى لانجد لها تبـــديلا ـ سينطبق حتما على تلك الفئة الباغية كما انطبق على من قبلهـــا دون استثناء ·

ان اليهود ليس لهم سند طبيعى أو شرعى لاتخاذ فلسطين وطنا قوميا لهم ، فهم شعب لم يعرف التـاريخ له وطنا قط ، انهم دخـلوا فلسطين بالقوة بعد مدة من رحيلهم عن مصر وتغلبوا على شعب كان يفوقهم حضارة وبقوا هناك مستعمرين ، ثم أزيلوا عنها بالسيف كما دخلوهـا بالسيف تاركين فيها شعبها الاصلى، شأنهم فى ذلك شأن جميع المستعمرين الذين أديلت دولهم وكان لابد لها أن تدول ، ثم تقطعوا فى الارض أمما ·

ان طرد شعب بالقوة ليحل محله شعب آخر لم يحدث قط فى تاريخ الانسانية ، وانه لشيء غريب وخصوصا انه قد حدث فى عصر شـاهد الانفاس الاخيرة للاحتلال والاستعمار، عصر نهضت فيه الانسانية وقاربت أن تكتمل فيه حقوق الانسان ·

ان هذا الكائن الجديد ضد الطبيعة ، وما كان ضد الطبيعة فلا بقاء له · انه قام على أسنة الرماح وأسنة الرماح قد تصلح لأى شيء الا أن تكون مكانا يستقر عليه !

القرآن والطب

١ ـ اذى المحيض

٢ ـ الشذوذ الجنسى

٣ ـ الحيوان المنوى

٤ ـ قصة جنين

٥ ـ الطب الاسلامى

٦ ـ المحرمات العشر (الاطعمة المحرمة)

٧ ـ الزنى

٨ ـ الخمر

١ ـ أذى المحيض :

(ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) (١)٠

انه والله لتشريع حكيم يدعو اليه الطب الحديث والذوق السليم والخلق القويم : فالمحيض الذى يشمل العادة الشهرية والأنزفة الرحمية والدم الناتج عن الولادة والاجهاض فوق انه كريه الرائحة منفر ، فانه يحمل أذى كبيرا وشرا مستطيرا للزوجين على السواء ٠

انه يعرض الرجل لالتهاب مجرى البول اذا ماتسرب بعض دم الحيض الفاسد اليه حاملا معه جراثيم الامراض ، ولا يقتصر أذاه للرجل على ذلك فلو فرض ووجد عند المرأة مثلا عدوى وراثية بالزهرى فانها لاتظهر فى الاحوال العادية لان العدوى تكون كامنة ، أما دم الحيض فربما وجد به بعض الجراثيم مما قد يتسبب عنه عدوى الرجل ٠

هذا هو ضرره للرجال : التهاب فى مجرى البول وتعرض لمرض الزهرى من مرض قد يكون كامنا ٠

أما ضرره للنساء فأشد وانكى ٠ فمقاومة المرأة للامراض ومناعتها وقت الحيض تنقص الى حدها الأدنى ٠ فتكون اكثر تعرضاً للعدوى اذا مادخلت جراثيم الامراض المهبل أو عنق الرحم ٠ وهو أمر كثير الحدوث وقت الجماع ٠ أما فى غير أوقات الحيض فان هذه الجراثيم يتغلب عليها الجسم بشدة مقاومته ، وبما أن الرحم يكون مدة الحيض محتقنا ، فاذا أضيف اليه ما تحدثه المباشرة من الاحتقان الشديد ٠ فقد يحدثان نزفا ولا سيما اذا كان به أورام أو التهابات ٠

أما بعد الولادة فان الرحم لايكون فى حجمه الطبيعى ٠ ويستمر كذلك ستة أسابيع تقريبا ، وهى المدة التى قد يستمر فيها النزيف من الرحم عقب الولادة ، والتى تتطهر بعدها معظم النساء ٠

---

(١) [illegible] (٢٢٢) ٠

وقد تؤدى المباشرة في أثناء الحيض الى التهاب في الرحم يحدث عند السيدات حالات عصبية يستعصى علاجها ، ولذلك منعت المباشرة حتى تطهر المراة فيعود اليها بهاؤها وجاذبيتها ، وتنتظم نفسيتها وتزول العوامل التى تضر بصحتها ، وحينئذ لايوجد مانع من الجماع واتيـــان الرجل للمرأة من حيث أمرهما الله اتيانا طبيعيا ، اذ أن المباشرة من غير الموضع الطبيعى فيها ضرر كبير ، وهى تعتبر اثما يستوجب التوبة ، اذ أن هذه المباشرة قد يتسبب منها التهاب فى مجرى البول للرجل وفى البروتستاتا ، غير مايحدث عندها من جروح ، فوق انها تفقد الرجولة وتورث التخنث وتهد من قوى الرجل .

وقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحذيرا شديدا المباشرة فى أثناء الحيض ومن غير الطريق الطبيعى بقوله :

« ملعون من أتى امرأة وهى حائض ، ملعون من أتى امرأة فى دبرها ، ملعون من عمل عمل قوم لوط » .

٢ ـ الشذوذ الجنسى

وهذا الشذوذ الجنسي هو الذى وقع فيه آل لوط ، وصب الله جام غضبه عليهم من أجله ، وهو الذى أشير اليه فى القرآن الكريم بقوله تبارك وتعالى فى سورة الشعراء (١) : (أتأتون الذكران من العالمين · وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم بل انتم قوم عادون) ·

وأهم الاسباب التى حرم (اللواط) من اجلها بقاء الجهاز التناسلى عند الرجل والمراة سليما ، اذ أن لسلامته تاثيرا كبيرا فى سلامة كل عضو آخر من أعضاء الجسم : فمن المعروف علميا أن الافرازات التى يفرزها الجهاز التناسلى ترتبط بأوثق الصلات بافرازات الغدة النخامية ، تلك الغدة الصغيرة الحجم العظيمة الشأن التى فى أسفل المخ والتى تتحكم فى نشاط أعضاء الجسم واجهزته المختلفة : القلب وسائر الاعضاء الاخرى والجهاز الهضمى والجهاز التنفسى والجهاز العصبى ·

والجهاز التناسلى فى الرجل والمرأة جهـــاز خال من الجراثيم تماما بعكس نهاية الامعاء الغليظة ، فان الفضلات التى تخرج منها يتكون معظمها من جراثيم ضارة : جراثيم معروف علميا أنها هى التى تسبب القيح ، ولم يحتط لها الجسم الا فى هذا المكان فحسب ، بحيث لو وجدت فى مكان آخر لأدت الى أعظم الضرر · فتسربها الى الجهاز التناسلى للرجل أو للمرأة أو لكليهما عن طريق اللواط يفقد هذا الجهاز صفة طهارته من الجراثيم ، فيصبح مرتعا لهذه الجراثيم التى تحدث التهابا وتقيحا تزداد خطورته كلما ازداد عدد هذه الجراثيم ، ويترتب على هذا ضعف الحيوانات التناسلية ، وربما أدى ذلك الى القضاء عليها ·

وبما أن الجهاز التناسلى والغدة النخامية مرتبطان ـ كما أسلفنا ـ ارتباطا وثيقـا فانه يترتب على التهـاب الجهـــاز التناسلى واضطراب افرازاته اضطراب افرازات الغدة النخامية ، فيتأثر باضطرابها الجسم كله ·

هذه الحكم البالغة تحيطنا بسياج يحمينـــا من الوقوع فريســة لامراض قد يستعصى علاجها ، كما أن هـــذه الاجازة التى فرضهـا الله سبحانه وتعالى على الرجل مدة الحيض انما هى فترة استجمام للرجل أيا كانت قوته يكون بعدها أشد رغبة فى المباشرة وأكثر اقبالا عليها ·

---

(١) آيتا (١٦٥ ، ١٦٦) ·

٣ ـ الحيوان المنوى :

« خلق الانسان من علق »

هذه الآية الكريمة هى الآية الثانية من سورة العلق . أولى سور القرآن نزولا : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق) . وقد تضمنت هذه الآية معجزة علمية خالدة مر الناس عليها مر الكرام حتى آذن بظهورها الزمان حين كشف العلم عن بهائها للعيان .

وتتلخص هذه المعجزة فى أن الله خلق الانسان من حيوان يشبه العلقة وهى دودة تسبح فى الماء من خواصها أن تمتص دم الانسان أو الحيوان حينما تعلق بأحدهما .

وأوجه الشبه أن العلقة تسبح فى الماء وهو سائل ، وكذلك الحيوان المنوى يسبح فى السائل المنوى . والعلقة تعلق بما تقابله وكذلك الحيوان المنوى يعلق بالبييضة . وتمتص العلقة دم الانسان أو الحيوان الذى تعلق به : وكذلك الحيوان المنوى اذا اتحد مع البييضة امتص غذاءه .

أما اذا فسرنا العلقة بأنها كل ما يعلق فان الحيوانات المنوية تشبه فراخ الضفدع وهو ما يسميه العامة بالعلق ، وقد يكون له أصل لغوى . وهو أنه يعلق بالحشائش وهو صغير ، كما يعلق الحيوان المنوى بالبييضة. وهما يتشابهان فى الشكل ، فكلاهما له رأس وذنب ، وينفصل ذنب فرخ الضفدع عند بدء نموه ، كما ينفصل ذنب الحيوان المنوى عندما يتحد بالبييضة ويتشابه الاثنان ايضا فى الحركة ، فكلاهما يتحرك حركة سوطية بمساعدة ذنبه .

وانك لترى مبلغ الاعجاز اذا علمت أن الحيوان المنوى حيوان يبلغ من الصغر حدا لايمكن أية عين مجردة أن تراه ، ويكفى أن تعلم أن القذفة الواحدة من ماء الرجل قد تحوى مائتى مليون من هذه الحيوانات . وأن هذا المقدار كاف لأن يحمل منه قدر ماتحوى مصر من نساء خمس عشرة مرة تقريبا .

هذه الحقائق علم بعضها بعد أن اكتشف المجهر وأدخلت عليه

تحسينات عدة ، وقد اخترع المجهر حوالى سنة ١٥٩٠ بوساطة جانسن وادخل عليه تحسينات جاليليو وفنتانا وآخرون · ولا تزال التحسينات تترى عليه ·

أما بقية هذه الحقائق فلم يتوصل اليهـا الانســان الا فى أيامنا هذه ، فى القرن العشرين بعد أن تقدم الطب بخطاه الجبـارة فدرس الانسان ما بطن منه وما ظهر ·

ولك أن تسأل : من علم محمدا هذا فى وقت لم يكن البشر يعلمون عن ماء الرجل سوى انه سائل عادى ، ولم يكن يدور بخلدهم أن يبحثوا هل به حياة أولا اذ كانوا يجهلون عنه كل شيء ؟

لقد ظل هذا سرا خافيا حتى أزاح العلم الستار عنه ، ليعلم المتقولون أن محمدا لم يتلق هذا العلم عن بشر ، فلقد كانوا حينئذ فى غيهم يعمهون وفى جهـالتهم يتخبطون ، وانمـا اسـتقاه ممن يعـلم السر وأخفى ، رب السموات والارض وما بينهما وما تحت الثرى ومن احاط بكل شيء علما ·

٤ ـ قصة جنين :

تلك هي القصة التي تناولها القرآن الكريم تناولا شاملا جامعا مانعا لم يبق فيه للاجيال التي تلت نزوله ماتزيده ، ولم يترك للعلم وآلاته أن يضيفا شيئا الى بياناته :

« انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » (١) . فالانسان خلقه الله لا من نطفة الرجل وحده بل من نطفة أخلاط أى من ماء الرجل وماء المرأة . لا من ماء الرجل وحده كما كان القدماء يعتقدون .

ولو قصرنا هذا على ماء الرجل وحده لكان هذا أيضا صادقا فماء الرجل يجمع أخلاطا من الحيوانات المنوية : نصفها مهيأ أن ينتج اناثا ونصفها مهيأ أن ينتج ذكورا ، والقذفة الواحدة من السائل المنوى للرجل تحمل حوالى مائتى مليون من الحيوانات المنوية : مائة منها تنتج ذكورا ، والمائة الاخرى تنتج اناثا .

وقد وصف القرآن الكريم هذه الحيوانات وصفا دقيقا لم يتوصل العلم اليه الا بعد أن استعان بجميع وسائله ، تلك الوسائل التى كان العرب ومن عاصروهم والقرون التى تلتهم لايرقى اليها خيالهم . وذلك مما يدحض قول المتشككين ان القرآن الكريم كتاب غير منزل ، لقد خلق الله سبحانه وتعالى الانسان من حيوان يسبح فى ماء مهين . (ألم نخلقكم من ماء مهين) (٢) أى فيه ذلة وضعف ، اذ ان هذه الحيوان ـ برغم انه نشيط ـ ضعيف لا يمكنه أن يعيش الا وسط هذا الماء وفى درجة حرارة معينة . وأقصى مدة يمكنه أن يعيشها داخل الرحم اسبوع لا يحتفظ فيها بقوته الاصلية بل تقل تلك القوة تدريجيا ، أما خارج الرحم فلا يتجاوز عمره نصف ساعة اذا ظل فى وسطه المائى ، أما اذا انفصل عنه فانه يموت فى الحال .

---

(١) سورة الانسان آية (٢) .

(٢) المراسلات (٢٠) .

أ ـ الماء الدافق

ولكن من أين يأتي هذا الماء ؟ هذا ماظل سرا غامضا حتى وصل الطب حديثا الى معرفة أصله فاذا به لايزيد عما جاء فى كتاب الله العزيز .

(فلينظر الانسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) (١) .

فالماء الذى يتدفق من الرجل يأتى من الخصية ، وتأتى البييضة فى المرأة من المبيض ، هنا نقف لحظة لنرى من أين يأتى الدم الى هذين العضوين ؟

ان الدم يأتى اليهما بوساطة شريان يخرج من الشريان الاورطى من مكان يقابل الكلى موقعه بين العمود الفقرى وهو مايقصد بالصلب فى الانسان ، وبين عظام الصدر وهو مايقصد بالترائب فيه . ولكن الأغرب من ذلك ان الخصية فى الرجل والمبيض فى المرأة يكونان فى بدء تكوينهما فى موضع يجاور الكلى ، والكلى فى موضع بين صلب الانسان وترائبه .

اما كيف يتدفق هذا الماء فتفسيره بالنسبة لماء الرجل لايحتاج الى ايضاح . ولكن تفسيره بالنسبة للمرأة هو الذى يظهر وجه الاعجاز فيه :

فالبييضة خلية مستديرة لاتستطيع الحركة من تلقاء نفسها ، ولكنها فى الاصل خرجت ضمن ماء دافق ، فمبيض المرأة يتكون من حويصلات تنضج تباعا كل شهر فيكبر حجمها وتكثر أوعيتها وتفرز خلاياها سائلا يملأ الحويصلة التى تقترب من سطح المبيض بالتدريج ، ثم تنفجر فتنطلق منها البييضة مدفوعة بالسائل الذى داخل الحويصلة .

هذا ماحققه العلماء بعد ان نزل كتاب السماء بثلاثة عشر قرنا أو ما يزيد ، وما هذا الا الفصل الاول من هذه القصة الممتعة التى تناولها كتاب الله ـ فسبق العلم ولم يترك زيادة لمستزيد .

ب ـ نوع الجنين

أما الفصل الثانى ففيه اعجاز سيظل دائما ماثلا للعيان : فالله تبارك وتعالى هو الذى يتحكم فى نوع الجنين فيهدى الى الهدف نطفة واحدة ويضل عنه هذا الجم الغفير من الملايين .

---

(١) سورة الطارق الآيات ٥ ـ ٧ .

ولقد حاول العلم أن يتحكم فى نوع الجنين ؛ ولكنه أيقن أن نوع الجنين يخضع لحكم مقدر فوق طاقة البشر ، فان حيوانا واحدا من حوالى مائتى مليون حيوان يحتوى عليها ماء الرجل ينتج نصفها ذكورا وينتج نصفها الآخر أناثا هو الذى يلقح ببيضة المرأة . فكيف يستطيع العلم أن يختار حيوانا واحدا من هذه الحيوانات ويجعل له السبق على غيره ليصل الى الهدف قبله ؟ حقا ان هذا لمستحيل ، فكل الوسائل والمحاولات التى اتبعت فيما مضى والمتبعة الآن والتى قد تتبع فى المستقبل لاسند لها ولا جدوى منها ·

(لله ملك السموات والارض يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير) (١) ·

نعم سيظل التحكم فى نوع الجنين لله وحده مهما تقدمت الايام · وستظل تلك الآيات معجزة على مر الدهور والاعوام ·

جـ ـ العرق دساس :

ويتقرر نوع الجنين اذا كان ذكرا او انثى وقت اندماج الحيوان المنوى معالبييضة . وفى لحظة الاخصاب لايتقرر نوع الجنين فحسببل تتقرر شخصيته كذلك : اذ باتحاد النطفة والبييضة يرث هذا الكائن خليطا من السمات البدنية للأبوين ، كما ياخذ عنهما تلك الصفات المتوارثة التى ينقلها بدوره الى ذراريه · وهذا مادعا رسول الله صلوات الله عليه أن يقول : (تخيروا لنطفكم فانكحوا الاكفاء وانكحوا اليهم) (٢)·

وهناك قانون الوراثة يسمى قانون (مندل) يفسر لنا حكمة هذا الحديث ·· خلاصته ـ على وجه التقريب ـ : « ان المولود يرث من أبويه الصفات الظاهرة كاللون والطول والعرض والشكل والصفات غير الظاهرة كالذكاء والرحمة أو البلادة والقسوة والميل الى الاجرام والجنون وبعض أمراض الدم قد يرثها المولود من أحد والديه أو منهما معا ·

والصفات التى يرثها المولود اذا لم تظهر بشكل واضح فى الجيل الأول فقد تظهر بشكل أوضح فى الجيل الثانى أو الذى يليه · وهذا

---

(١) سورة الشورى آيتا (٤٩ ، ٥٠)

(٢) رواه ابن ماجة والحاكم والبيهقى عن عائشة .

ما أشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه (١) مع رجل قدم له وقال : ولد لى غلام أسود فقال الرسول : هل لك من ابل ؟

قال : نعم ·

قال : ما ألوانها ؟

قال : حمر ·

قال : هل فيها من أورق ؟ أى فيه بياض وسواد ·

قال : نعم ·

قال : فأنى ذلك ؟

قال : لعله نزعة عرق - أى ورث هذا اللون من جد لأمه أو لأبيه أو قريب لأحدهما ·

قال : فلعل ابنك هذا نزعة ·

وهذا الحديث يبين بوضوح أن الصفات التى يرثها الحيوان أو الانسان قد يتوارثها كل منهما توارثا غير مباشر اما من أسلافه وأجداده أو أخواله وأعمامه ·

ولعل أبلغ دليل على أن العرق دساس تاريخ أسرتين أمريكيتين :

احداهما أسرة تعقبت ذريتها جمعية السجون الأمريكية فى غضون ثلاثة أجيال من سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٩٤٩ وتدعى أسرة جوكسن الأشرار : كان ربها سكيرا فاشلا ، هاجر من نيويورك الى بقعة منعزلة تماما فى قلب الريف وبرفقته صاحبة له ، وتبعهما اليها جماعة من رفقة السوء وأسسوا مستعمرة منعزلة عن العمران ، وحدث التزاوج بينهم . كل منهم ٢٠٠٠من ضعفاء العقل وأكثر من ٣٠٠ متشرد وصعلوك ونحو ٣٠٠ امرأة فاسدة و ١٤٠ من المجرمين من بينهم عدد لا بأس به من سفاكى الدماء . ولم يحترف حرفة من بين الألفين الا عشرون شخصا تعلموها فى السجون وقدر ماكلفته هذه الأسرة ، الحكومة الامريكية خلال خمسة وسبعين عاما بمليون و ٣٠٨ آلاف دولار !

اما الأسرة الأخرى فتسمى أسرة كاليكوك نسبة الى مارتين كاليكوك الذى أنجب قبيل الحرب الأهلية الامريكية طفلا غير شرعى من فتاة بلهاء،

(١) عن ابى هريرة ·

وبلغ ما أمكن تتبعه من نسل هذا الطفل بضعة اجيال ٤٨٠ كان منهم ١٤٣ أبله و ٣٦ من مواليد السفاح و ٣٤ من مدمنى الخمور من ضحايا الصرع و ١١ مجرما و ٣٣ من فاسدى الأخلاق و ٨٣ طفلا ماتوا فى أثناء الرضاع ٠

وفى سنة ١٩٣٨ كانت آخر ممثلة لهذه الأسرة (ديبورا كاليكاك) امرأة بلهاء في الرابعة والعشرين من عمرها ، طاقتها العقلية تساوى الطاقة العقلية لبنت فى سن سبع سنوات !

د ـ القرار المكين

ها قد امتزجت النطفة البييضة فنشأ من امتزاجهما شخص جديد ينمو بخطى حثيثة ويتطور ٠ تنقسم البييضة الى خليتين ، وهاتان تنقسمان اربع أقسام ، وهكذا دواليك حتى تتكون البلايين من الخلايا التى يتألف منها جسم الانسان .

ولكن فى أى مكان يستمر التطور لهذا الجنين ؟ انه فى مكان حصين (ألم نخلقكم من ماء مهين ٠ فجعلناه فى قرار مكين ٠ الى قدر معلوم ٠ فقدرنا فنعم القادرون) (١) ٠

ذلك انه بمجرد أن تحمل المرأة ينشأ حول تلك الكرة الصغيرة المملوءة بالخلايا غلاف يسمى « الغلاف الاكال » يأخذ فى بناء عش للبييضة فى جدار الرحم ، ويأكل ما يصادفه من أنسجة شاقة طريقها الى الرحم ، وجزء من الخلايا يكون المشيمة (الخلاص) ، وتتعاون المشيمة مع الغلاف الأكال على اطعام المضغة النامية ٠ ويحمل دم الأم الطعام والأكسيجين والماء الى المشيمة ، فيمتصها الغلاف الأكال ويرسلها الى المضغة ٠

وفى الشهر التالى تنشأ حول المضغة قربة ممتلئة بالماء تحيط بالمضغة احاطة تامة الا حيث يتصل بها الحبل السرى الغليظ ٠ وهذا الغلاف المائى وظيفته أن يقى الجنين أية رجات أو لكمات تصيب جسم الأم ٠ ويظل هذا الغلاف يحيط بالجنين حتى يخرج من بطن أمه ٠

وهكذا يستقر الجنين ويأخذ فى التطور فى قرار مكين وحصن حصين ، يصل اليه غذاؤه بانتظام ، ويدرأ عنه الاذى ما أحاطه الله به من اغلفة واقية ٠

---

(١) المرسلات الآيات ٢٠ -- ٢٣ ٠

هـ ـ تطور الجنين

وليس هذا كل ما أخبرنا به القرآن الكريم عن تطور الجنين ، ولكنه تتبع الجنين خطوة خطوة فى داخل الرحم ، لم يترك صغيرة ولا كبيرة الا انبأنا بها . انظر اليه وهو يقول :

« ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (١) .

فالانسان أول أمره يتكون من حيوان منوى يعلق بالبييضة ثم تصير هذه البييضة علقة ذات خلايا عدة تستقر فى جدار الرحم ، وتأخذ تلك العلقة فى النمو وتعرف عندئذ بالمضغة ، وفى نها الاسبوع السادس تظهر مراكز التعظم أى النوايا التى تتكون حولها العظام . ثم تكسو تلك المراكز طبقات من اللحم والعضلات . وبعد ذلك يتم تكوين الاعضاء المختلفة للجنين . هذا ما يقوله العلم الحديث وهو ما قاله القرآن الكريم فى هذه الآية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا .

فالانسان يكون من بييضة لاتكاد لصغرها تبصرها العين المجردة تأخذ فى الانقسام حتى يصبح الجنين فى الشهر الأول ما يقرب من ربع بوصة ، وفى الشهر الثانى يزداد طول المضغة ستة اضعاف ، فيصبح بوصة ونصف البوصة تقريبا ، كما يزداد وزنها ٥٠ ضعفا ، وفى هذا الشهر تتسم المضغة بطابع الشبه للانسان ، ويطلق عليها لفظ الجنين الذى يأخذ فى النمو حتى يصير طفلا .

و ـ المضغة والجنين :

وها هو ذا القرآن يخبرنا بادق التفاصيل : يخبرنا أن المضغة تمر فى دورين (من مضغة مخلقة وغير مخلقة) : فالمضغة فى أول أمرها تكون مضغة غير مخلقة ليس لها الا طرف دماغى وطرف ذنبى وظهر وبطن .

بعد ذلك تتخلق المضغة ، فتبدأ فى تكوين أعضائها . تبدأ الرئتان تتكونان ، ثم يبدأ ظهور الكبد وتظهر براعم الأذرع والسيقان وتكاد

---

(١) المؤمنون آية (١٤) .

تكون جميع اعضاء الجسم فى مبدا التخلق . فيبدا تكوين الانف والاذن وفى نهاية الشهر الثانى تبدا الاعضاء التناسلية فى الظهور .

من هذه المضغة المخلقة ينشأ الجنين. وفى الشهر الثالث تنشـــ براعم الاسنان وجدورها في عظام الفكين ، ثم تبدأ آيات نشاط الجهـــاز الهضمى فى الظهور ، فتأخذ الخلايا المبطنة للمعدة في افراز المخاط الذى تندى مجرى الطعام فى الجهاز الهضمى . وتبدأ الكبد في صب الصفراء وتفرز الكلى البول فيتسرب من مثانة الجنين النخط ، على أن دم الأم يظل يتلقى عن طريق المشيمة معظم الفضول التى ينجاب عنها جسم الجنين .

ويبلغ الجنين اقصى درجات النمو فى شهريه الثالث والرابع حيث ينمو الى ست أو ثماني بوصات تقريبا فى الطول ، ويكاد يبلغ نصف طوله حين الميلاد . ويظل ينمو وتظل أعضـــاؤه المختلفة يتم تكوينهـــا حتى يخرج باكيا الى الدنيا الضـــيقة امامه على اتســـاعها من مسكنه الرحب امامه على شدة ضيقه .

ولعل معترضا يقول : مالك قدمت في تفسيرك للآيةوأخرت فالقرآن ذكر العلقة المخلقة اولا وأنت وضعتها آخرا ؟ وردا على ذلك أ ــ

لابد ان يعلم السائل أن الواو العربية لا تفيد الترتيب ولكنهـا تفيد مجرد الجمع بغير ترتيب أو تعقيب . فاذا قلت : حضر محمد وعلى فان ذلك لا يعنى أن محمدا قد أتى قبل على بل يجوز أن عليا أتى قبـــل محمد بزمن طويل . ومما يدل على أن الواو لا تفيد الترتيب قوله تبارك وتعالى في سورة الملك : (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) : فمن البدهى أن الموت يتبع الحياة ، ولو كانت الواو هنا تفيد الترتيب لانعكس المعنى فى هذه الآية ، ولذلك فقوله تبارك وتعالى (من مضغة مخلقة وغير مخلقة) لا يفيد أن المضغة المخلقة تأتى قبـــل المضغة غير المخلقة .

ز ـ تمييز الجنين

ولكن القرآن الكريم لم يقتصر اعجازه على هده الآيات المبـــينات فحسب ، فقد قال تبارك وتعالى فى كتابه العزيز : (ان الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الارحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى ارض تموت ، ان الله عليم خبير) (١)

---

(١) سورة لقمان آية (٣٤) .

فعلم ما فى الارحام من بين الاشياء التى اختص الله نفســه بعلمها، فليس لمخلوق أن يعلم ما فى بطن الأم هل هو ذكر او انثى او واحد او اكثر الا الله سبحانه وتعالى . .

وقد ظل العلم يجاهد وظل العلماء يحاولون لعلهم يهتدون ففشلت جميع محاولاتهم : استعانوا بالعدسات فما أسعفت وبالاشعة التى تبين ما بداخل الاجسام فما أظهرت واستعانوا بالتحليل ، ولكنهم كلما أوغلوا فى بحثهم وضح لهم عجزهم ، فالانسان فى بدء تكوينه لا يمكن بأية وسيلة تمييز نوعه ، اذ أن الاعضاء التناسلية التى يمكن بها تمييز الذكــر من الأنثى تبدأ فى الظهور فى نهاية الشهر الثانى . كما أن بواكير هــذه الاعضاء تتشابه فى الذكر والأنثى . حتى ان الثديين يبدأ نموهما فى الجنسين كليهما حوالى الشهر الثانى .

أما حين تظهر أعضاء الجنين ويمكن تمييز الذكر من الأنثى فقــد وقف أمام الانسان حائل أعجزه عن تمييزه ، فالجنين فى بطن أمه يكون كمن هو جالس القرفصاء ورأسه منحن نحو ركبته بحيث يغطى ساقه وفخذاه موضع العورة منه ، فلا يمكن الاشعة السينية أن تصوره بالنسبة الى هذا الوضع القرفصائى الذى يمنع ظهور هذه الأعضاء لأنها تكون خلف عظام الساقين ، ولسبب آخر وهو أن الاعضاء التناسلية أعضــاء رخوة والاعضاء الرخوة لا تظهرها الاشعة .

وهكذا يظل الجنين أمام العالم الخارجى سرا مكنوما حتى يخرج الى الدنيا فيعلم المشتاقون ـ بعد أن يظهر للعيان ـ ما كانوا يجهلون والى اجتلاء سره يتوقون .

٥ ـ الطب الاسلامى

لقد وضع الله تبارك وتعالى للمسلمين دستورا صحيا ، لو اتبعوه لبعدوا عن جميع الامراض ، ولبعدت الامراض عنهم . وهذا الدستور الصحى انما هو دستور وقائى ، دستور اذا اتخذه المسلم رائده كان له درعا تقيه وسياجا يحميه .

وقد اهتم الاسلام بالوقاية اهتماما عظيما لعلمه أن الوقاية خير من العلاج . وما زالت هذه الحكمة هى حكمة الطب الذهبية ، وستظل كذلك لا تتغير مهما تغير الزمان وتقلب الحدثان .

والاسلام هو اول من وضع قواعد الحجر الصحى حينما يجتاح الوباء قطرا من الاقطار أو مصرا من الامصار ، فلم يزد الطب الى الآن فيما وضع من قواعد هذا الحجر عن قول رسول الله صلوات الله عليه عن الطاعون : (اذا سمعتم به (١) بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه) .

ولكن الاسلام لم يترك دستوره الصحى مبتورا ، لعلمه ان الانسان مهما بالغ فى الاحتياط فان هناك أمورا لا يسيطر عليها ولا يمكن أن يحتاط لها . كما أن هناك عوامل ليست فى حسبانه قد تسبب له امراضا وهو لا يدرى ، ولذلك فقد دعا الناس الى التداوى : انظر الى قول رسول الله صلوات الله عليه فيما يرويه الامام احمد : (تداووا عباد الله فان الله تعالى لم يضع داء الا وضع له دواء ، غير داء واحد الهرم وفى لفظ السام) (٢) .

وقوله ايضا فيما يرويه عنه أبو هريرة : (ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء) .

وفى حديث ابن مسعود : (ان الله لم ينزل داء الا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله) .

---

(١) أى الوباء .
(٢) يعنى الموت .

من هذا نرى أن الاسلام اهتم بالطب بنوعيه : الطب الوقائى : الذى أولاه اهتمامه الاكبر ، والطب العلاجي الذى رسم له بعض الحدود والمعالم ولكنه ترك الجزء الاكبر فيه للانسان حاثا إياه على البحث وعدم اليأس ، مهما كان المرض عضالا ، اذ اخبره ان كل داء لابد له من دواء.

وها قد حقق العلم كلمته ، فتلك الامراض التى قال الطب قديما وحديثا انه ليس لها من دواء قد اهتدى أخيرا لعلاجها العلماء فقد تغلبوا على الاوبئة المرعبة : التيفوس والتيفود ، ونجحوا فى علاج الدرن وهم فى سبيل معرفة سر السرطان ذلك الداء المخيف ٠

والطب الوقائى الذى اتخذه الاسلام دستورا له هو الذى يسعى الطب جاهدا اليه ، وسيكون طب المستقبل ، فالطب الآن يسعى ليقى البشر شر الوقوع فريسة لامراض ربما لا ترحم وقد تتحصن جراثيمها ضد العقاقير المختلفة ٠

حرمت عليكم :

١ ــ الميتة	٦ ــ والموقوذة
٢ ــ والدم .	٧ ــ والمتردية
٣ ــ ولحم الخنزير	٨ ــ والنطيحة
٤ ــ وما أهل لغير الله به	٩ ــ وما أكل السبع الا ما ذكيتم
٥ ــ والمنخنقة	١٠ ــ وما ذبح على النصب (١)

تلك هى المحرمات العشر : هل حرمت جزافا ؟ أو هل حرمت بما تجلبه على الانسانية من نكبات وويلات ؟..

هذا السؤال ، أجاب عنه الطب جوابا شافيا بعد أن تهيأت له الاسباب فأوصد باب التكهنات ، والتخرصات . أجاب عنه مصدقا ، فدعش الناس ، وحق لهم أن يدهشوا : من أين جاء محمد بهذه البينات ؟ وكيف سبق ذلك الرجل العلم لا بالعشرات من السنين بل بالمئات وهو الرجل الأمي الذى لم يستعمل قلما ، ولم يقرأ ما سطرت أقلام الناس من صحائف ومجلدات ، والذى نشأ بين قوم كانوايتخبطون فى ظلمات من الجهل فوقها ظلمات ؟

نشأ بين قوم كانوا يأكلون الموتى من الحيوانات وقد أدى بهم منطقهم أن يقولوا لم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل خالق الارض والسموات ؟

نشأ بين قوم كانوا يلعقون الدم ، وكانوا يملئون أمعاء الحيوانات منه ويشوونها ثم يأكلون ويطعمون بها من حل بهم من أضياف ، كانوا اذا أجدبوا جرحوا ابلهم بالنصال ، فاذا سال الدم شربوه ظنا منهم أنه خير ما فى الارض من طعام وشراب .

---

(١) وردت هذه المحرمات العشر فى سورة المائدة من آية (٣) .

وليتهم كانوا يفعلون ذلك فحسب ، بل كانوا يربون الخنزير ـ اقذر حيوانات الارض ـ ويأكلون لحمه ، وكانوا يسمون الاغنام ويتخذونها طعاما يستسيغونه .

كانوا يأكلون لحوم الحيوانات الموقوذة وهى الحيوانات التى ماتت من الضرب والحيوانات المتردية وهى التى سقطت من مكان عال ولحقها الردى ، وكانوا يأكلون ما نطح من الحيوانات فمات ، وكانوا اذا اعتدى حيوان مفترس على حيوان آخر وأكل بعضه يأكلون ما تبقى منه .

وكان من عادتهم فى الجاهلية حينما يقدمون على ذبح حيوان أن يستفتحوا باسم اللات والعزى،كما كان عند الكعبة أحجارتسمى النصب كانوا يذبحون الذبائح عليها للاصنام ، ثم يلطخونها بالدماء ، ويضعون ما يذبحون من لحوم الحيوانات عليها اعجابا وفخرا .

جاء الاسلام فوجد هؤلاء القوم الغارقين فى جهلهم ، لهم هذه التقاليد التى تضر بسلامة أجسامهم ونفوسهم ، وتجعلهم عرضة لامراض يستعصى عليهم ابراؤها ، اذ لم يكن لديهم وسائل علاجية ووسائل وقائية فحرمها عليهم كما حرمها على من خلف من بعدهم .

حرم ما يذبح على النصب لسببين :

أولهما دينى يتصل بالعقيدة الاسلامية فى صميمها ، فقد أمروا أن يذكروا على ذبائحهم اسم الله وألا ينذروا ما يذبحون لغير الله .

أما الآخر فيرجع الى الرغبة فى حفظ كيانهم والمحافظة على سلامة أبدانهم ، فتلك الذبائح التى تذبح على النصب توضع عليها فتتلوث لحومها بما قد تكون قد تلوثت به تلك الاحجار من قبل ، فاذا أكل الانسان لحومها ألحقت به الاضرار ، وقد تسبب له أمراضا كان العرب فى جاهليتهم لا يعرفون أسبابها مثلهم فى ذلك مثل غيرهم ، كما كانوا يجهلون أيضا كيفية علاجها .

الميتة

أما الميتة فحرمت لا لسبب واحد ولكن لاسباب عدة : فربما كان موتها بمرض معد قد يصيب الانسان كأمراض السل والحمى القلاعية والحمى الفحمية ، وقد يرزق الانسان مناعة ضد هذه الامراض ، فاذاأكل لحومها لم يصب بسوء ، ولكنه حينئذ يصبح مصدر خطر اذ قد يلعب

دور حامل الميكروب الذى لا يصاب بالمرض ، ولكنه يكون وسيلة من وسائل الاصابة به فينقله الى غيره دون أن يدرى ·

ومن المعروف أن الدم أخصب مزرعة لنمو الجراثيموالطفيليات وهو سريع الفساد خارج الجسم فاذا نفق (١) الحيوان فقد الدم مقاومته للجراثيم ، اذ أن الكرات البيضاء فى الدم التى هى الحصون التى تقى الجسم كل اعتداء أجنبى للجراثيم والطفيليات والاجسام الغريبة تنفق هى الاخرى ، فيكون الدم كرجل ألقى سلاحه أمام عدو جبار لا ينفك يوالى الهجوم عليه · فاذا ظل دم الحيوان محتبسا فى الجسم بعد موته،سارت الجراثيم والطفيليات التى بالجهاز الهضمى وخصوصا بكتريا التعفن فى الأوعية الدموية من شرايين وأوردة الى جميع أنسجة الجسم ، وبذلك يصير الدم ملوثا بعدد كبير منالجراثيمالتى تتكاثر بسرعة هائلة ، ما دام لا يعوقها عائق فيتلوث جسم الحيوان كله ويصير غذاء غير صالح ، يضر الانسان ويسبب له أمراضا تسممية ·

زد على ذلك أن حبس الدم فى الحيوان بعد موته يسرع بلحمه الى التعفن بخلاف الذبح فانه يصفى دم الحيوان : اذ يذبح الحيوان عادة من موضع فى عنقه حيث الاوعية الدموية الغليظة قريبة من الجلد · فاذا قطعت تسرب منها أكبر كمية من الدم ، وبذلك يصبح لحم الحيوان بعد ذبحه محتويا على كمية من الدم ضئيلة جدا يمكن ازالتها بغسله بالماء ·

والاضرار الناشئة من احتباس الدم ومن بقاء الجهاز الهضمى الذى يلوث الجثة منأسباب تحريم الميتة منالحيوان موتا طبيعيا ، وهىكذلك سبب تحريم ما مات موتا غير طبيعى : المنخنقة والموقوذة والمترديه والنطحية وما أكل السبع الا ما وجدت به بقية من حياة وذبح ·

الدم المسال :

هذه أسباب تحريم الميتة بأنواعها ـ إما الدم المنسال فلم حرم ؟

حرم لما تقدم من الاسباب ، وفوق ذلك لانه سريع التلف واذا ترك معرضا للعراء تلوث بسرعة من الجراثيم التى بالهواء ، ولذلك يحمل العدوى الى من يشربه · كما أنه يحمل جراثيم الامراض التى قد يكون الحيوان مصابا بها ، ويحمل كذلك جراثيم الامراض الوراثية التى تكون كامنة فلا تظهر على الحيوان نفسه لمناعته ، علاوة على احتوائه على المواد الكيماوية الداخلة فى افرازات الجسم كالبولينا التى تفرز فى البول ·

---

(١) مات ·

الخنزير :

هذه بعض معجزات القرآن الطبية ، ولعل سائلا يقول : وما شأن الخنزير ونحن نرى أن الغربيين يربونه ويأكلون لحمـــه ، ولحمه لذيذ الطعم وهو من أحسن اللحوم مذاقا وأعظمها تغذية ؟ وهل للعلم وسيلة لمنع اضراره ؟ أو هل للمدنية شأن فى التقليل من أوضاره ؟ وهل تحلل المدنية بوسائلها الاحتياطية ما تحرم الاديان ؟ وأيهما اذن يتبع الانسان؟

وللجواب عن هذا ، ولكيلا يكون الانسان في حيرة من أمره ، يجب أن يعلم أن الخنزير لا يصاب بمرض واحد فقط ، ولكنه يصاب بأمراض عدة ، قد تنتقل الى آكلي لحمه ، اذا هم أهملوا فى طهيه ، ومن بين هذه الامراض السل الرئوى . أما المرض الآخر وهو مصدر الخطر الذى لايمكن تلافيه فهو الدودة الشريطية ، اذ أن الخنازير تحمل حويصلات هـــذه الدودة في لحومها بنسبة ١٠٪ أو ما يزيد .

وحويصلات هذه الدودة في الخنازير أخطر من حويصلات مثيلاتها فى الحيوانات الاخرى المعرضة للاصابة بها ، لانها فى الخنـــازير تكون محاطة بأكياس تمنع الحرارة من الوصول اليها ، ولذلك فان العلقة التى بداخل الحويصلات لا تتأثر بالغليان ، وهذا مما يجعلهـــا فى الخنزير مصدر خطر أعظم من مثيلاتها فى أى حيوان آخر غيره .

وهى فى الخنزير لا تسبب مرضا واحدا فحسب ، ولكنها تسبب مرضين خطيرين ، من فضل الله على المسلمين أنهم خلو منها ، بخـــلاف الفرنجة مع عظم استعدادهم وتعدد وسائل علاجهم .

المرض الاول :

وهى دودة في الامعاء الدقيقة يتردد طولها من مترين الى ثلاثة أمتار وقد يبلغ الثمانية أو أكثر ، رأسها مستدير يبلغ قطره مليمتر . لهـــا خرطوم يحمل صفين من رماح صغيرة تبلغ من عشرين الى خمسين رمحا ولها أربعة ممصات . أما بقية جسم الدودة فهو عبارة عن عدة حلقات . وتفقس هذه الدودة بيضات صغيرة تخرج من الانسان مع غائطه ، فيصبح الانسان وسيطا فى نقلها للغير .

وهذه الدودة تسبب في الاجسام ــ خصوصا النحيفة ــ وفى الاطفال

أعراضا معوية شديدة وقيئا وشدة حساسية فى الأعصاب وفقر دم شديدا ·

وهذه الدودة الناتجة عن أكل لحم الخنزير اذا ما أصابت الانسان فقد يبتلع بيبضاتها التى تلوث يديه واصابعه عند التبرز ، فتفقس البييضات داخل الجهاز الهضمى وتخرج منها العلقة التى تخترق جدار الامعاء وتتجه الى الاوعية الدموية ، فتنتشر فى أجزاء الجسم وتكون حويصلات مثل تلك التى فى لحم الخنزير ·

والانسان الحامل لهذه الدودة قد يخرج منه دون قصد وهو نائم بعض حلقات ناضجة من جسم الدودة تسبب التهابا بفتحة الشرج ، فيهرش فيها ، فتعلق البييضات بأصابعه . وحين يضع الانسان أصابعه فى فمه لأى سبب تذهب البييضات الى أجزاء جسمه كما حدث فى جسم الخنزير ، فتظهر أكياس هذه البييضات فى ملتحمة العين واللسان والرقبة والضلوع والرئتين والكبد . وانك لتجد امثال هذه الحالات فى حجر العمليات فى مختلف المستشفيات ، فى البلاد التى تستحل لحم الخنزير ووجود هذه الاكياس فى المخ يسبب الصرع والتشنجات وهذه حالة يستعصى علاجها .

المرض الثانى دودة التريكونوس

وهى دودة صغيرة تعيش فى أجسام بعض الحيوانات ، ويلتهم الخنزير بيبضاتها من الفضلات التى يعيش عليها فتدخل الجهازالهضمى حيث تفقس هذه البييضات وتخرج منها العلقات التى تنتشر بوساطة الدم فى أجزاء الجسم المختلفة للخنزير حيث تكون حويصلات صغيرة لا ترى بالعين المجردة · واذا ما أكل الانسان لحم الخنزير يصاب بهذه الدودة التى من الممكن أيضا أن تنشر الحويصلات فى جسم الانسان وتصيبه بتشنجات وآلام فظيعة فى العضلات وبالصرع ·

ولعل معرفة ما قد يتسبب عن أكل لحوم هذه الخنازير من أمراض ما يقنع كل معترض اذا أراد أهدى السبيلين ليتبع أحداهما : الدين أم المدنية الضارة : الدين الذى حرم تحريما تاما ، أم المدنية التى أباحت مع تسليمها بالاضرار التى رأتها ظنا منها أن فى استطاعتها أنتتحاشاها فتلك الأكياس لا ترى الا بالمجهر ولم يكن للعربى غير عينيه يرى بهما ماظهر من الأشياء ، فما كان من الدين الا أن وقاه مايصيبه منها بالتحريم ·

وقد أخذت المدنية بما اتخذت من وسائل وبما أثار لها العلم من سبل تسعى جهدها للتغلب على هذه الاضرار ، بالكشف على ما يذبح من هذه الحيوانات داخل السلخانات . ولكن هناك من الناس من يذبحها خارج هذه السلخانات دون أن يكلف نفسه مشقة الكشف الطبى عليها، وخصوصا فى البادية حيث يعيش الانسان متنقلا وراء الماء والمرعى ، كما أن الانسان لا يستطيع التيقن من خلو هذه الحيوانات من هذه الديدان مائة فى المائة ، مما يجعلنا نؤمن مع الدين أن خير وسيلة لاجتناب هذا الشر الوبيل انما هو التحريم .

٧ ــ الزنى

(ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا) (١)

ان الاسلام كبقية الاديان التى سبقته حرم الزنى . والزنى فى نظره من أكبر الكبائر التى تستلزم اقامة الحد ، وحد الزانى غيرالمحصن الجلد مائة جلدة ، والمحصن الرجم حتى المـــوت . ولو أننا نظرنا الى الاضرار الاجتماعية والاضرار الجسدية التى يسببها الزنى ما توانينـا عن موافقتنا على هذا الموقف الذى يقفه الدين الاسلامى من هــذا المرض الاجتماعى الذى يهدد كيان المجتمع فى الصميم .

ان الزنى فوق هدمه لكيان الاسرة يتسبب فيما نسميه بالامراض السرية ــ الزهرى والسيلان والقرحة الأكالة والقرحة الرخوة ــ وقدظهر الزهرى بشكل وبائى فى نابولى عام ١٤٩٤ ميلادية عقب اكتشـــــاف الدنيـا الجديدة التى يقال : ان العـدوى نقلت منهـا الى أوربا وآسـيا وأفريقية واستراليا . أما السيلان فكان معروفا أيام موسى عليه السلام وكذلك القرحة الرخوة والقرحة الأكالة التى جاء ذكرهما فى العهـد القديم من الكتاب المقدس .

ويعتقد بعض الناس أن الزهرى أخطر من السيلان ، ولكن السيلان قد يكون فى بعض الاحيان أخطر من الزهرى . ومن مضاعفات السيلان عند الذكور التهاب البروتستاتا والحويصلة المنوية والبربخ والتهـاب المثانة والحالب والكلى وضيق مجرى البول والتسمم الدموى والصديد فى الدم والالتهاب الملتحمى والعمى وروماتزم الشبان .

أما مضاعفاته عند النساء فهى التهاب المثـــانة والحالب والمبيض والقناة المبيضية والتهاب الكلى والتسمم الدموى الصـــــديدى والرمد الصديدى والعمى وروماتزم الشبان وخراجات فى أعضاء التناسل او بجوارها وفى بعض الاحيان يسبب العقم .

وعند الاطفال الحديثى الولادة يسبب السيلان الالتهاب الصديدى

---

(١) سورة الاسراء آية (٣٢) .

الملتحمى الحاد وينتج عن ذلك العمى فى بعض الاحيان وضعف النظر وتكوين سحابات كثيفة على العينين تشوههما ٠

وتتمثل خطورة السيلان فى أن ميكروبه قد يكمن فى البروتستاتا فيشعر الشخص الذى أخذه من زمن ولم يعالجه علاجا صحيحا تاما أن ليس به شىء غير طبيعى ، وهذا الشخص ينقل العدوى الى زوجته التى قد تتحول الى امرأة مريضة عقيم ٠

أما الزهرى فيسبب عند الذكور والاناث مضاعفات كثيرة منها شلل الاطراف السفلى والشلل الجنوبى العام والعمى وتصلب الشرايين والذبحة الصدرية والتشوهات الجسمية والقرح وسقوط الشعر ٠ وفى بعض الاحيان يكون سببا مؤهلا لسل وسرطان اللسان ٠ ويسبب عند السيدات الاجهاض وموت المولود والولادة قبل الأوان . وعند الاطفال يسبب البله والعبط الوراثى والضعف والهزال والضمور الوراثى .

أما القرحة الأكالة فتسبب تشوه أعضاء التناسل الخارجية وتآكل أجزاء منها أو أكثرها أو جميعها ، أما القرحة الرخوة فتسبب تقرحات كثيرة وتشوهات بأعضاء التناسل الخارجية وربما تنتج عنها قرحة أكالة ٠

ومما يزيد فى خطورة هذه الامراض أن بعضها لا يكون له أعراض ظاهرة تمنع الغير من اتقاء شره ، كما أن جراثيمها قد تكمن وهذا مما يضاعف خطورتها ٠

وعلى الرغم من أن معظم هذه الامراض تأتى من الملامسة المباشرة التى تحصل عند الجماع أو التقبيل أو خلافهما ، فان قليلا من العدوى ينتقل عن طريق استعمال أشياء لشخص مريض مثل فوط الوجه والملابس والمناديل وأدوات الطعام والشراب والمباول الملوثة ٠ ومن الاسباب التى تزيد من خطورتها وتسبب انتشارها فى العالم أجمع سريتها وخجل المريض وعدم اعترافه ، وخوفه من الحقيقة المرة ٠

هذه هى القائمة المرعبة للامراض التى يسببها الزنى . وانها لقائمة تقشعر من هولها الأبدان ، فاذا أضفنا الى هذه القائمة المخيفة تفكك الاسرة وضياع الانساب والعار الفاضح وانحلال المجتمع تبعا لذلك ، ادركنا تماما لم حرمت الاديان الزنى وجعلته فى مقدمة الكبائر ، وفرض له الاسلام هذا العقاب الصارم ٠

٨ ــ الخمر

للخمر في الاسلام قصة تدل على فهم عميق للنفس الانسانية :

أتى الاسلام فوجد القوم عاكفين عليها ، وان لها لسحرا وان كان كاذبا ٠ وان لها للذة وان كانت مهلكة ، وجدهم منغمسين فيها ٠ فأخذ يتدرج معهم فى علاجها ، اذ قد سرى حبهـــا فى قلوبهم سريان الدم فى شرايينهم فبين لهم أن مضارها تفوق منافعها بقوله تبارك وتعالى :

« يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » (١) .

أحدثت هذه الآية أثرها عندالكثيرين ، فتركها قوم ولم يزل يعاقرها آخرون ٠ بين لهم القرآن الكريم أن مضارها عظيمة تفوق ما بها من فائدة قليلة ، فاستمع قوم الى صوت العقل وأصمت العادة آذان الآخرين ٠

بعدئذ اتخذ القرآن معهم خطوة أشد حزما ، فبعد أن عرف الناس آثامها اتخذ أول خطوة ايجابية فى تحريمها ، فقد كان منهم من يذهب للصلاة ثملا ، فلا يعلم ما يقول ، حينئذ نزل قوله تبارك وتعالى :

« يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (٢)

نهاهم عنها خمسة أوقات فى اليوم معظم النهار وبعض الليـــل ، وبذلك هيأ نفوسهم للتحرر من سلطانها٠هيأ نفوسهم للخطوة الحاسمة: التحريم التام ٠

(يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصـــدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) (٣) ٠

---

(١) البقرة : من آية (٢١٩) ٠

(٢) النساء : من آية (٤٣) .

(٣) المائدة : الآيتان (٩٠ ، ٩١) ٠

وعل كان هذا غير ما ينتظرون ؟ كلا بل كان هذا ما كانوا اليه يتوقون ، فكثيرا ما أوقعت بينهم البغضاء ، وأوجدت بينهم الشحناء . انتهوا جميعا واجتنبوا الخمر اجتنابا تاما ، فاطمأنت قلوبهم واستراحت نفوسهم .

الخمر والجريمة :

ولم حرم الاسلام الخمر ؟

حرمها لأنها أم الكبائر والفواحش ، حرمها لانها تحتضن الجريمة ، حرمها لانها تفقد الانسان السيطرة على أعصابه ، فيرى الحرام حلالا ، والحلال حراما ، يقدم على الجريمة غير هياب ولا وجل ، يقدم على سلب الاعراض والاموال والانفس والثمرات ، غير مقدر لخطورة ما هو مقدم عليه ، فحوادث السيارات كثيرا ما تحدث تحت تأثيرها ، اذ قد ثبت من الاحصائيات أن ما يقرب من ١٥٪ منها يسببه أولئك السائقون الثملون ، كما ان أكثر من نصف جرائم الاعتداء ، وحوالى نصف جرائم الأمتعة سببها الخمر التى تسبب ما يربو على الأربعين فى المائة من مجموع الجرائم المختلفة . وكم من فضائح ومخاز سببتها أم الكبائر ، فضائح يندى لها الجبين خجلا ، ويستحى اللسان والبيان أن يرددها أو يوضحها علنا .

زد على ذلك ان الغالبية العظمى انما هم ممن يعجزون عن الانفاق على بيوتهم من أولئك الذين يعاقرونها . فكم ضمت الملاجىء ممن أضاعت زهوتها الكاذبة أموالهم ! وكم زخرت الشوارع بمستجدين أطاحت لذتها الخادعة بأملاكهم ، وكم كانت سببا فى شقاء بيوت كانت السعادة ترفرف عليها .

وهل هناك عبرة على أنها أم الشرور والآثام من تلك العبرة التاريخية التى لقنتنا اياها الحرب العالمية الثانية حينما استخدم الالمان بنت الحان التى حرموها على أنفسهم ، استخدموها لاضعاف حركة المقاومة الفرنسية . فأتت بخير ثمارها وكانت بشهادة الحلفاء أنفسهم السبب الرئيسى فى انهيار الجيش الفرنسى العظيم الذى علقوا عليه كبار الآمال ، ذلك الانهيار الذى كان مفاجئا وعجيبا .

كما لعبت الخمر دورا كبيرا فى حادث ضرب ميناء بيرل الامريكى

بالقنابل ، عندما هاجمه اليابانيون على حين غرة ، وكان ذلك اعلانا غـير رسمى للحرب بين أمريكا واليابان ٠

وكانت الخمر أيضا سببا فى اذاعة أحد قواد سلاح الطيران الامريكى لموعد الغزو الذى حدده الحلفاء للنزول فى القارة الاوربيـــة ، وذلك فى اثناء احدى حفلات الشراب ، فجوزى بأن خفضت رتبته تخفيضا كبيرا وأعيد فورا الى بلاده ، اذ أن شاربها لا يعرف كيف يكتم الاسرار مهما عظم قدرها وجل خطرها ٠

تلك بعض النكبات التى سببتها الخمر ، وانها لنكبات تبين لنـا بعض ما تجلبه المسكرات على شاربيها من ويلات ٠

وهناك أسطورة عربية تبين بوضوح أن الخمر هى أم الجرائم حقا٠ وتقول هذه الاسطورة : ان الشيطان قال ذات مرة لأحد الاشخاص : انك على وشك الموت ولابد لانقاذ حياتك من أن تختار بين ثلاث : اما أن تقتل خادمك أو تضرب زوجتك أو تشرب الخمر ٠ فاختار أخفها وشرب كأس الخمر ٠ ولما سكر ضرب زوجته وقتل خادمه حينما أراد تخليصها !

الخمر والفاحشة :

وكما تحتضن الخمر الجريمة ، تحتضن الفاحشة أيضـــا ، فتلك المرأة التى تشرب الخمر كيف تحافظ على عرضها ؟ وذلك الرجل المدمن هل يكتفى بما وهب الله له من حلال ؟ ان الذى يستحل رذيلة ليس أهون عليه من الوقوع فى رذيلة أخرى وخصوصا اذا لعبت بنت الحان برأسه وأفقدته الشعور بالتبعات وأماتت منه الارادة ٠

وهذا الرجل المدمن — الى أين يقوده ادمانه ؟ يقوده اسرافه فى الشراب الى أن يكون خالى الوفاض ، فلا يبقى عنده مايقيم به أود عائلته وخصوصا اذا كان متوسط الحال أو فقيرا ، وهنا قد تضطره الحاجة الى التفريط فى أعز مايملك حتى عرضــــه ، وقد تجتــذب أيدى الضرورة والحاجة فتيات تلك البيوت ولاسيما الحسان منهن الى التماس أسباب الرزق من طريق غالبا ما يكون طريقا غير شريف ، ويكن صيدا رخيصا لأولئك الشبان العابثين الذين يغرونهن بصنوف الغواية ، ويستعينون عليهن بما تسخو به أيديهم من الهدايا ويسير المال والشراب ٠ فيهوى بهن الكحول ٠

ومن أولئك الفتيات من يســـتخدمهن أرباب المواخـــير والمراقص

ليتسلمن الاغرار وأهل الدعارة ، ولقد أثبتت الاحصـــائيات أن معظم العاهرات انما هن من الفتيات النابتات فى تلك البيوت التى بهـا آباء مدمنون وأمهات مدمنات ·

الامراض التى تسببها الخمر :

يعتبر الطب الكحول وما يمازجه من الاشربة الروحية من أقسـام السموم ويراه أشد خطرا من الافيون والكوكايين والمورفين ، وصدق من قال ان الخمر تغرق فى كاساتها كل يوم أكثر ممن يغرقون فى محيطات العالم وأنهاره · ولقد أثبتت صحة هذا القول ما قامت به لجنة أبحاث المسكرات التى شكلت فى مدينة بوسطن الامريكية عام ١٩٣٧ من جهابذة العلماء وأساطين الاطباء ، وكان رائدها البحث عن الحقيقة وحدها كائنة ما كانت ، فقد تبين لها فى أول عام شكلت فيه أن عدد الوفيات من ادمان الخمور يزيد على عدد الوفيات من جميع الامراض الوبائية وعددها ٣١ مرضا بينها التيفود والباراتيفود والتيفوس والحمى القرمزية والطاعون والسل الرئوى ·

ولا شك أن ادمان الخمور أهم سبب من أسباب الامراض العقليـة بمختلف أنواعها ، وأن معظم رواد مستشـفيات تلك الامراض ارتادوا مشـــارب الخمر وطـــالت اقامتهم على موائدها · ولولا الخمر لخلت مستشفيات المجاذيب فى فرنسا من نصف روادها ·

وقد فكرت الحـكومة الامريكية فى تحريم الخمور ، وسنت لذلك قانونا ، ولكنها عجزت عن تنفيذه · فلما فشلت القوانين فى مهمتها ولم ترهب المدمنين قسوتها ، فكرت أن تلجأ الى النصيحة ، فأخذت فى وضع بطاقة على كل زجاجة مبينة ما قد يتعرض له الشارب من أمراض مثـل الآلام العصبية ثم الشلل ثم تحطيم القوى العقلية ثم الشلل الاهتزازى الى ما قد يسببه الادمان من أمراض الكلية والكبد والمخ التى لا تشفى، ولكن هذه النصيحة أيضا ذهبت أدراج الرياح ·

وليت الخمر تسبب هذه الامراض فحسب ، بل ان قائمة شرورها قائمة طويلة : فالاكثار منها يسبب تصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم وتليف الكبد · والافراط فى تناول الكحوليات يسبب التهابا مزمنا فى المعدة وفقدانا للشهية ، مما يجعل هؤلاء المدمنين لا يقبلون على طعامهم ، وبذلك تقل نسبة العنصر الغذائى الهام لخلايا الكبد ، وهى الاحماض

الأمينية والبروتينات ذات المرتبة الاولى ، مما يؤدى الى ضمور خلايا الكبد وتكوين النسيج الليفى مكانها .

ويعالج سنويا فى مستشفيات فرنسا من هذا المرض اثنا عشر ألف شخص .

ومن مضاعفات هذا المرض مرض الاستسقاء ومرض الصفراء والبرقان وعسر الهضم .

كما تسبب الخمر التهابات مزمنة بالكلى ينتج عنها التهاب غشائى مزمن يسبب تسمما كلويا وتسمما بوليا ، كما تقلل من مناعة الجسم ضد الامراض وتظاهر الامراض الخبيثة كالزهرى والسل على المصابين ، فاما أن تعجل بآجالهم أو تعوق عنهم شفاءهم .

أطوار التسمم الكحولى :

ويمر المدمن على الخمر بخمسة أدوار : -

أولها ضعف الملاحظة والتفكير . وحينما تصل نسبة الكحول فى الدم الى ملليجرامين فى كل سنتيمتر يبدأ الدور الثانى الذى يتميزفيه الشارب اما بالهدوء الحزين أو بالمرح الصاخب . فاذا بلغت نسبة الكحول فى الدم الى ثلاثة ملليجرامات دخل الشارب فى الدور الثالث، فيكون وقحا مزهوا وقد يصاب بالقيء والغثيان .

أما فى الدور الرابع حينما تزداد نسبة الكحول فى الدم الى أربعة ملليجرامات فيصبح الشخص غير قادر على الكلام أو المشى أو التفكير .

بعدئذ يأتى الدور الخامس وهو دور الاغماء التام ، والحرارة المنخفضة والتنفس البطىء ، والنبض الضعيف . حتى اذا وصلت نسبة الكحول فى الدم الى ستة ملليجرامات ، توفى المريض على الأثر .

الخمر والتناسل :

وليس تأثير الخمر مقصورا على شاربيها فحسب ، بل ان ضررها أبلغ من ذلك ، وأعمق : فهى تمتد حتى الى الأجنة فى بطون أمهاتهم ، والى الحيوانات المنوية التى منها يتخلقون فى أصلاب آبائهم . وقد قال أحد مشاهير اطباء الألمان : ان المشروبات الروحية ليست الا جيشا من الامراض المعضلة وينبوعا يفيض بمختلف الجراثيم ، ثم هى طاعون يتلف

الحيوانات المنوية قبل التخلق أو يقتل الجنين خلال الحمل أو الوضع ، ومن ولد من هؤلاء حيا عاجله فى أذاه بمهده • واذا قدر له أن يفلت من فتكه وعو فى المهد فانه سيعيش معرضا للامراض المعضلة أو العاهات الملازمة •

ولقد أجمل أحد الاساتذة علاقة الكحول بالتناسل بقوله : ان شاربى الكحول يموتون أصغر سنا من غيرهم ، وان الضعف والعطب يصيب أعضاءهم أسرع من غيرهم ، وان العقم منتشر بينهم ، كما يصيب العقم شاربى الكحول قبل غيرهم بزمن طويل ، وان شرب المرأة الكحول يفسد البييضات التى هى احدى مكونات الجنين •

وليت الأمر مقصور على ذلك ، فان الخمر تضعف الغدة المفرزة للبن فى أثداء البنات اللائى يولدن لآباء يشربونها • وكلما ازداد ادمان الأب ازداد ضعف تلك الغدة فى بناته فينتج عن ذلك أن تفقدبنت المدمن اللبن بمجرد أن تكبر وتلد أو يقل فيها اللبن بدرجة لا تكفى وليدها •

وأولاد أصحاب الكحول يولدون ضعيفى البنية ، معرضين لمختلف العلل والامراض • ولقد أقام أحد الاساتذة احصاء مقارنا بين أبناء الكحوليين وأبناء المسلولين والعاديين فوصل الى النتائج الآتية التى تنطق بالدلالة على ما تجلبه الخمور على الانسانية من نكبات :

النسبة الى مائة طفل	الكحوليون	المسلولون	العاديون
١ ـ مات فى حالة الوضع	٢ر٥	٣ر١٠	٢ر٧١
٢ ـ مات فى الشهر الاول	٣ر٦	٢ ر٤	٤
٣ ـ مات من شهر الى خمسة	٧ر٧	٦	٨ ر٤
٤ ـ مات من خمسة اشهر الى سنة	٢ر١١	١ ر٥	٣ ر٦
٥ ـ مات من سنة الى خمس سنوات	١٤ر٦	٣ ر٩	٧ ر٥

فأنت ترى أن نسبة الموتى من أطفال الكحوليين تزيد على نسبة الموتى من أطفال المسلولين والعاديين زيادة كبيرة وتقرب من مجموعهما، ولا يحتاج هذا فى دلالته الى شرح أو تأويل • وقدر الخبراء فى فرنسا أن نصف أمراض الاطفال فى فرنسا يرجع الى الادمان فى الشراب من جانب الآباء •

الادمان أو سرطان هذا العصر :

نعم ان الادمان المتفشى يمكن أن يوصف بانه سرطان هذا العصر، فالشفاء بطىء فى كلتا الحالتين • والحقيقة أنه أشد خطرا من السرطان• فالسرطان يستعيذ منه الانسان ويشمئز لذكره ، وقد يتغلب عليه العلم على مرور الايام ، وهو نادر التفشى اذا قيس بتفشى الادمان الذى له سحر استطاع أن يقهر العقل البشرى حتى بعد أن بلغ الغاية من النضج والاكتمال ، والذى تحدى القوانين والاديان •

ذلك الادمان الذى على الرغم من هذه القائمة الطويلة السوداء التى تضم مصائبه فان الكثيرين لا يزالون يقبلون عليه ، اذ أن هموم الحياة وصدماتها ومشاكلها التى تزاد كل يوم تعقيدا كلما تقدمت المدنية تجعل بعض الناس يشعرون بأنهم عاجزون أمامها فلا يقدرون على احتمالها ، فيرتمون فى أحضان الخمر ليتخلصوا من شر مؤقت يجلب عليهم مصائب تنهال عليهم مدى الحياة • فما الادمان الا انتحار بطىء يحاول الانسان به أن يداوى به نفسه من مرض خفى فى أعماق نفسه •

والافراط فى تناول الكحول قد يكون ادمانا أو عرضا من الاعراض وأن حالة التخدير الحاد فى حالة الادمان انما هى بحث ايجابى وراء مزيج مضطرب من مسرات تعم العقل والجسم ، وتنتج هذه المسرات الكحولية عن ظهور التأثيرات الفسيولوجية للكحول على أعضاء الجسم وأجهزته • وبما أن الكحول يحترق فى الجسم بسرعة ثابتة تقريبا فان السرور الناتج عن تعاطيه يتلاشى بسرعة ، ولذلك فان المدمن يضطر أن يتناول الكحول باستمرار لكى يحتفظ فى الدورة الدموية بدرجة تشبع دمه بالكحول اللازمة لارضاء مشاعره الداخلية •

أما الافراط فى الكحول كعرض من الاعراض فتنطوى تحته حالة من الحالات التى يحاول المتعاطى جاهدا أن يتهرب منها بتعاطيه الكحول • وقد يرجع سبب الادمان الى اضطراب حياة الطفولة وخصوصا اضطراب العلاقات الاموية •

وهناك نظرية ملخصها أن الرغبة فى تعاطى المشروبات الروحية يرجع الى عدم انتظام افرازات الغدد الداخلية وقد تتولد الرغبة فى الشراب

في بعض الحالات نتيجة لنقص الفيتامينات والاملاح أو امداد الجسم بحرارة تكفي مقاومة الجو البارد . وفي هذه الحالات لا يتخذ تعاطي المشروبات شكل الادمان ، الا اذا كان المتعاطي مهيأ بطبيعته للادمان .

ويعتقد الناس أن الخمر تحدث تنبيها للجهاز العصبي . وهذا خطأ شائع ، فهي على العكس تحدث تلبدا في مراكز التفكير العليا يجعل الانسان يشعر بانطلاق من واجباته ومسئولياته ومخاوفه. وهذا هو سبب احساسه بالبهجة والسرور والشجاعة ، ولهذا يظن الكثيرون أن في الشراب المعتدل بعض الفائدة لانه يهيىء للقوى العقلية فترات من الراحة والاستجمام ، ولكن سرعان ما يصبح الانسان أسيرا للشراب ويجد حياته بغير الخمر لا تطاق ، وعندئذ يكون التلف في جهازه العصبي قد بدأ ثم ينتقل بعد ذلك دون أن يشعر الى مرتبة الادمان حيث تتحطم حياته وتنهار آماله وأعماله .

وهذا الاحساس بالدفء الذي يشعر به شارب الخمر هل هو حقيقة واقعة ؟ هل الخمر ترفع من حرارة الجسم ؟ كلا فهي على العكس تخفض من حرارته ، فقد ثبت طبيا أن كأسا من الخمر الى ثلاث كئوس تسبب انخفاضا في حرارة الجسم بمقدار نصف درجة مئوية .

ولكن لماذا يشعر الشارب بالدفء ؟ يشعر بالدفء لان الكحول يوسع الاوردة والشرايين المنبثة في سطح الجسم ، وخصوصا ما كان منها في الوجه ، فيسارع الدم من داخل الجسم الى سطحه حاملا معه حظا كبيرا من الحرارة التي يفقدها الجسم بطريق الاشعاع . فهذا الاحساس بالدفء لا يزيد من حرارة الجسم ولكنه في الحقيقة ينقصها .

علاج الادمان :

ان علاج تعاطي المشروبات الروحية اما ان يكون طبيا او نفسيا واجتماعيا أو كليهما . وفي جميع حالات العلاج يجب الامتناع التام عن اعطاء المسكرات . ولعلاج حالات الادمان الحاد تعطى ادوية من شانها الاسراع بأكسدة الكحول في الدم ، وزيادة مقاومة الجهاز العصبي المركزي لكميات الكحول الزائدة في الدم .

وفي المرحلة التي تلي ذلك يوجه المستشفى عنايته الى تقويم العواطف وكبح جماح الرغبة في الشراب .

أما من ناحية علاج المشكلة نفسيا واجتماعيا فقد أصاب المشرفون الاجتماعيون والدينيون في ذلك نجاحا كبيرا وما زالت هناك ميـــادين فسيحة للبحث في المشروبات الروحية لم ترتد ارتيادا تاما بعد . ويجب أن تشمل هذه الميادين النواحي الكيماوية والاجتماعية والنفسية والطبية للمشكلة .

تلك هي قصة الخمر التي حرمها الاسلام والتي اعتبرها أم الكبائر والآثام ، والتي أفلح في علاجها فخلا منها المجتمع الاسلامي زمنا ازدهر فيه وأصبح عزيز الجانب موفور السلطان . فلما تدنس فيما بعد بهـذا الداء العضال وغيره بدأ هذا المجتمع عهدا في التفكك والاضمحلال .

فهرس

الموضوع	الصفحة



الثمن : ٦ ل. ل.